بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصافات

وهي سورة مكية، وموضوعها الرئيسي الحديث عن وحدانية الله، والتعريف به سبحانه، وتنزيهه، والقضايا المتصلة بهذا الموضوع.

وهي تبدأ بقول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾

هذا: قسم من الله تعالىٰ علىٰ وحدانيته عز وجل، وهو قسم بالملائكة.

ولله أن يقسم بما شاء، وأما غيره، فلا يحق له أن يقسم ويحلف إلَّا بالله تعالىٰ.

والمعنى: ﴿وَ﴾ الملائكة الصَّافَّاتُ أنفسها في الصلاة ﴿صَفًّا﴾.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ عما نهىٰ الله عنه ﴿زَجْرًا﴾.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ كلام الله ﴿ذِكْرًا﴾.

وجواب هذا القسم: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾.

هنا، الإلٰه الواحد هو:

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾

نعم، هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهما، ومن فيهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من جميع المخلوقات، ﴿وَ﴾ هو كذلك ﴿رَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ والمغارب.

لا رب سواه، ولا خالق إلَّا هو، سبحانه وتعالىٰ.

وبعد القسم: علىٰ هذه الوحدانية، وبعد التعريف: بهذه الربوبنية العامة يكون التعريف علىٰ بعض مظاهر قدرته في فعله عز وجل لنا، وعنايته بنا، حيث يقول عز وجل:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾

يعني ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ القريبة من الناس ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ أي: بضوئها، أو بها.

﴿وَ﴾ حفظناها ﴿حِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ يعني عاتٍ متمرِّد، إذا أراد أن يسترق السمع، ثم وصف ربنا هؤلاء الشياطين، بثلاث صفات:

الأولىٰ: أنهم ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى﴾ مَن في ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهم الملائكة.

الثانية: أنهم ﴿يُقْذَفُونَ﴾ بالشهب ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ فتجعلهم ﴿دُحُورًا﴾ أي: مطرودين ممنوعين مما يريدون.

الثالثة: ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ دائم لا ينقطع.

ثم يقول ربنا: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ منهم ﴿ٱلْخَطْفَةَ﴾ أي: سمع الكلمة من الملائكة، فأخذها بسرعة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ فأحرقه؛ لأنه تعدَّىٰ حدوده، وخالف أوامر الله.

ثم يأمر ربنا سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ: أن يسأل هؤلاء المعاندين سؤال تقرير، يصل من جوابهم له إلىٰ إلزامهم بالإيمان باليوم الآخر، حيث يقول له:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾

أي: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ اسألهم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ﴾ أقوىٰ وأصعب ﴿خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ﴾ من السمٰوات والأرض وما بينهما؟ يعني مَن خلق الأشقّ ـ في عرفكم ـ قادر علىٰ خلق الأهون، وعلىٰ ذلك: فإعادتكم وبعثكم أمر هين يسير، حيث ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾ ابتداءً

﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ ضعيف، لاصق باليد، لذلك: فنحن قادرون علىٰ بعثهم، وحسابهم والعجيب: أنه مع وضوح ذلك، يكذبون.

يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾

يعني أنت تعجب يا محمد من إنكارهم للبعث الواضح لهم بأدلته الكثيرة القوية ﴿وَ﴾ هم في الوقت ذاته ﴿يَسْخَرُونَ﴾ من دعوتك لهم، وكلامك معهم.

﴿وَ﴾ هؤلاء ﴿إِذَا ذُكِّرُوا۟﴾ ووُعظوا بما حدث للسابقين ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ ولا يتعظون ﴿وَ﴾ حتىٰ ﴿إِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾ كونية، أو عقلية، دالة علىٰ صدقك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي: يبالغون في السخرية والاستهزاء.

هذا فعلهم.. ﴿وَ﴾ أما قولهم فقد ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ﴾ الذي تقوله وتخبرنا به من البعث ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح، لا شك فيه.

ثم قالوا إنكارًا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ ودُفِنَّا ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا﴾ بعد ذلك ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ للحساب ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أيضًا؟ هذا كلام لا نصدِّقه ولا نؤمن به!!

يا محمد: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَعَمْ﴾ تبعثون ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ صاغرون ذليلون، تحت قدرة الله الواحد سبحانه وتعالىٰ.

ثم يخبر رب العزة عن يوم البعث هذا، فيقول:

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾

يعني ليس البعث بعسير !!

فأمره ﴿زَجْرَةٌ﴾ صيحة ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ فقط: ﴿فَإِذَا﴾ الخلائق كلها، و ﴿هُمْ﴾ معهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلىٰ ما قدموا من أعمالهم.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾

أي: ﴿وَ﴾ حينما عاينوا العذاب ﴿قَالُوا۟﴾ متحسرين ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء، الذي سنعاقب فيه.

وهنا يقال لهم:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ البعث، وهو يوم ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ بين أهل الحق وأهل الباطل ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ الرسل، فتكفرون بالله.

ويصدر الأمر الإلٰهي بخصوصهم في قوله تعالىٰ:

﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أي: اجمعوا، و ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من أماكن بعثهم إلىٰ الموقف العظيم، كذلك ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: أشباههم، وقرناءهم من الشياطين، ونساءهم، الذين كانوا يكفرون معهم، ﴿وَ﴾ ثالثا ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام وغيرها، وبعد حشرهم: ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ فأرشدوهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وهو طريق النار، ﴿وَ﴾ قبل دخولهم النار: ﴿قِفُوهُمْ﴾ احبسوهم ليسألوا ويحاسبوا؛ حيث ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ عما اقترفوه.

وينفَّذ الأمر الإلهي!! ويحشر الذين ظلموا وأزواجهم، وما كانوا يعبدون!! ويحاسبون!! ويقال لهم تهكُّمًا بهم؛ وإذلالًا لهم:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

أي: لِمَ لَمْ ينصر بعضكم بعضًا، ويدافع بعضكم عن بعض في هذا الموقف الرهيب؟ فيكون جواب الحال:

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يعني منقادون لأمر الله، لا يخالفونه، ولا يحيدون عنه، ولا يفرون منه، ولا يملكون فيه دفاعًا.

يقول الحق سبحانه:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: ﴿و﴾ في هذا الموقف العظيم، وعند هذا الاستسلام الأليم ﴿أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يتخاصمون، ويُلقي كل فريق منهم باللوم علىٰ الآخر، وهذه صورة من هذا التلاوم: ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الأتباع والمقلِّدون والمطيعون لأهل الكفر والظلم، لكبارهم: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ من حيث نصدِّقكم، فتهوِّنون لنا أمر من الدين، وتنفِّروننا من الإيمان، وتشجِّعوننا علىٰ الكفر معكم.

وأجاب زعماء الكفر، ورؤساء الظلم، و ﴿قَالُواْ﴾ لهم: ﴿بَل﴾ أي: ليس الأمر كم قلتم، إنما الحقيقة: إنكم ﴿لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ باختياركم ورغبتكم، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۖ﴾ نقهركم به، ونلزمكم بالكفر معه ﴿بَلْ كُنتُمْ﴾ أنتم ﴿قَوْمًا طَـٰغِينَ﴾ باختياركم ورغبتكم؛ لذلك أطعتمونا، ورفضتم إجابة الرسل، والإيمان بالله.

ثم يقولون: وعلىٰ كل حال لقد كفرنا جميعًا ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ﴾: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، لذلك ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ هذا العذاب لا محالة، إذا كنا ﴿أَغْوَيْنَـٰكُمْ﴾ وضلّلناكم ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ مثلكم ﴿غَـٰوِينَ﴾.

يقول تعالىٰ مقررًا ما يستحقون، ومبيِّنًا سبب ما هم فيه بقوله عز وجل:

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾

يعني ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ جميعًا، رؤساء الكفر وأتباعهم ﴿يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ لا فرق بين كبير وصغير.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ونعذِّبهم؛ عدلًا منا، على كفرهم وعصيانهم، والسبب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: آمنوا أنه لا إله إلَّا الله وحده، المستحق للعبادة والطاعة، فآمنوا به، وأطيعوه، واعبدوه، تراهم ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ولا يؤمنون.

﴿وَ﴾ أكثر من هذا: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا﴾ التي نعبدها ﴿لِ﴾ قول ﴿شَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ وهو محمد ﷺ.. ؟

ويرد عليهم ربنا عز وجل قائلًا:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أي: ليس محمد بشاعر، ولا مجنون ﴿بَلْ﴾ هو رسولنا ﴿جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ من عندنا ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيما أخبروا به عن الله سبحانه وتعالى.

و ﴿إِنَّكُمْ﴾ بكفركم به، وعنادكم له: ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ في نار جهنم.

﴿وَ﴾ اعلموا أنكم ﴿مَا تُجْزَوْنَ﴾ هذا العذاب ﴿إِلَّا﴾ بسبب ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

كما أنَّه لا ينجو من هذا العذاب ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين آمنوا به، واتبعوا رسله، وعملوا بشرعه.

ثم يخبر ربنا تبارك وتعالى عن جزاء عباد الله المخلَصين هؤلاء، بعد بيانه جزاء المستكبرين، فيقول جل وعلا:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

يعني ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين آمنوا، واتبعوا رسله، وعملوا بشرعه، وأخلصوا لله، حتى صاروا مخلَصين!! ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم:

أولًا: الرزق، يقول تعالىٰ: ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ يتنعَّمون به، ويتلذَّذون، وهذا الرزق عبارة عن ﴿فَوَٰكِهُ﴾.

ثانيًا: التكريم، يقول تعالىٰ: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ معزَّزون، مرفَّهون ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الذي لا بؤس فيه ولا كدر معه أبدًا.

ثالثًا: السعادة، يقول تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ وجوههم إلىٰ بعضهم البعض، يتسامرون، ويأتنسون.

رابعًا: الرفاهية، يقول تعالىٰ: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: بخمر من أنهار الجنة ﴿بَيْضَآءَ﴾ لا يشوبها لون بشع، كخمر الدنيا ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ طعمها طيِّب، وريحها طيِّب، ولونها طيِّب ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ للعقول يذهبها ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

خامسًا: الحور العين، يقول تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ العفيفات ﴿عِينٌ﴾ الجميلات، واسعات العيون ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ مصون لا تمسه الأيدى، لنفاسته.

هؤلاء هم أهل الجنة، نسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا منهم، إنه سبحانه ولي ذلك، والقادر عليه.

هذا، وكما يُقبِل أهل النار ـ كما استمعنا منذ قليل ـ علىٰ بعضهم البعض يتساءلون!!

يُقبِل ـ أيضًا ـ أهل الجنة علىٰ بعضهم البعض يتساءلون!! ولكن من باب السعادة، وذكر الله، وشكره سبحانه. يقول المولىٰ سبحانه:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

يعني: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ أي: أهل الجنة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ يتسامرون، وهم في مجالس السعادة.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ لجلسائه ﴿إِنِّي كَانَ لِي﴾ عندما كنا في الدنيا ﴿قَرِينٌ﴾ صاحب من المشركين ﴿يَقُولُ﴾ لي ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بيوم الدين، والبعث، والحساب والجنة والنار؟

كما أنه كان يقول: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ أنبعث ونحاسب!!

ثم يسخر ويقول: لو كان هذا ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ إذًا؟ ثمَّ إنَّ هذا المؤمن الذي يُحدِّث أصحابه بهذا الحديث ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ معي إلىٰ النار، لأريكم ذلك القرين، الذي أحدِّثكم عنه؟

فيجيبونه، ويطَّلعون معه ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ المسلم إلىٰ قرينه الكافر الذي في النار ﴿فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ﴾ وسط ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ فلما رآه: ﴿قَالَ﴾ له ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ لقد كنت ستهلكني في النار معك لو أطعتك، ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ عليّ بالهداية وعصمته لي بالإسلام ﴿لَكُنتُ مِنَ﴾ المُتَّبعين لك ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ معك في هذا العذاب.

ثم يقول له تهكمًا بأقواله القديمة الكافرة: ألم تكن تقول: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۞ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ولا بعث ولا حساب ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ؟

ولا يكون من الكافر جواب.

ولذا يلتفت المؤمن إلىٰ أصحابه بعد أن رأوا منظر الكافر، وهو في العذاب، ويقول لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي نحن فيه، والحمد لله: ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

لذا يقول الرحمٰن الرحيم، في كلامُ يتلىٰ ويُتعبَّد به، ويُعمل بموجبه إلىٰ يوم القيامة:

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

أي: لمثل هذا الفوز، فليعمل العاملون بشرع الله.

ثم يقول ربنا سبحانه، في سؤال لا يحتاج إلىٰ إجابة:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾

يعني: ﴿أَ﴾ خبروني ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي فيه عباد الله المخلَصين، من جنات النعيم ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ التي في جهنم؟

ولأن الجواب واضح!! لذا: لا يكون جواب.

وكأن سائلًا يقول: ما شجرة الزقوم هذه؟ فيكون الجواب:

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

أي: هي ﴿شَجَرَةٌ﴾ تنبت ﴿فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ في جهنم، ﴿طَلْعُهَا﴾ ثمرها ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قبيح المنظر، فظيع الهيئة، طعمه بغيض.

ومع ذلك: ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا﴾ بسبب جوعهم ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ إكراهًا لهم وتعذيبًا، حتىٰ يعطشون.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ إذا عطشوا ﴿لَشَوْبًا﴾ مشروبًا مخلوطًا من صديد وماء حار، يقطِّع أمعاءهم، ويشوي وجوههم؛ لأنه ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾

فهم: من عذاب إلىٰ عذاب، ومن دركات إلىٰ دركات، ومن تنكيل بهم إلىٰ تنكيل.

نعوذ بالله من ذلك وأهله.

ويبيِّن الله عز وجل السبب الذي جعلهم في هذا العذاب المقيم، فيقول جل وعلا:

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أي: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ وجدوا ﴿ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ فلم ينكروا عليهم ضلالهم، بل اتَّبعوهم، وتمسَّكوا بباطلهم، ودافعوا عنهم ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ وخُطاهم وسلوكهم ﴿يُهْرَعُونَ﴾ يسرعون في التقليد لهم.

هذا: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)﴾

يعني ليسوا هم وحدهم أهل الضلال؛ فلا تحزن من أجلهم ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قبل مشركي هذه الأمة ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ السابقين من الأمم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم﴾ بآياتنا لهم ﴿مُّنذِرِينَ﴾ يخوِّفونهم من عذاب الله على كفرهم وعصيانهم، كما أرسلناك إلى هؤلاء، فما آمنوا كما لم يؤمن بك المعاندون من هؤلاء ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ ونهايتهم السيئة، لمَّا عصوا وعاندوا: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وهكذا: أهلكهم الله ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين آمنوا، وأطاعوا، وأخلصوا لله، وأخلصهم الله، فهؤلاء نجَّاهم، وأنعم عليهم، ورضي عنهم.

لمَّا قال ربنا عز وجل ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۞ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾، وكان هذا ـ كما هو واضح ـ على سبيل الإجمال!! أتبع ذلك بشيء من التفصيل عن أخبار هؤلاء الأولين، مع الذين أرسلوا إليهم منذرين، حيث يقول عز من قائل:

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢)﴾

هذه واحدة من سيَر الأولين: واحد من أُولي العزم المنذِرين، وهي: **قصة نوح** عليه السلام كما تعرضها سورة الصافات، يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا﴾ دعانا ﴿نُوحٌ﴾ بعد أن استفرغ كل مجهوده في دعوة قومه للإيمان، ولم يستجيبوا، حيث قال في النهاية: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

فأجبناه، ونصرناه، ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ نحن لدعاء المضطرين.

﴿وَ﴾ كانت إجابتنا لنوح عليه السلام.. على الوجه التالي:

أولًا: ﴿نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو الأذى من قومه.

ثانيًا: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ فقط ﴿هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ على وجه الأرض بعد الطوفان.

ثالثًا: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ من الأمم ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهذا الإنعام عليه، والإحسان إليه وفق سنتنا، حيث ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ كل ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وقد أنعمنا بهذا الجزاء على نوح كذلك، حيث ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحِّدين، المصدِّقين.

رابعًا: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ الذين كذَّبوه، وعاندوه، وحاربوه.

والمراد من ذكر القصة: تطييب خاطر النبي ﷺ، وتثبيت فؤاده، وكأن ربي عز وجل يقول له: فاصبر يا محمد على أذى قومك وتكذيبهم لك فسأهلكهم، وسأنصرك عليهم، وستعم دعوتك الآفاق.

ثم يقص الله عز وجل على نبينا عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، **قصة أخرى**: من قصص إخوانه المرسلين وهي: **قصة إبراهيم** عليه السلام، فيقول جل وعلا:

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾

أي: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ يعني من شيعة نوح عليه السلام، الذين اتبعوه في أصول الدين، ونشر دعوة التوحيد ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام.

﴿إِذْ﴾ حيث ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ﴾ خال من الشرك ﴿سَلِيمٍ﴾ من آفات القلوب، مخلص لله عز وجل. وهذا بعض من قصته:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

يعني حينما ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ لمَّا رآهم يعبدون الأصنام ﴿مَاذَا﴾ أي: ما هذا الذي ﴿تَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، أي: كيف تعبدونها؟ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أتريدون عبادة آلهة كاذبة؟ ﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ في هذه الحالة ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن يفعل بكم جزاء هذا الانحراف؟

وكرَّر إبراهيم عليه السلام دعوته لقومه مرارًا فلم يستجيبوا له، ففكر طويلًا، ماذا يفعل في أمرهم؟

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾

أي: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً﴾ فاحصة ﴿فِى﴾ علم ﴿ٱلنُّجُومِ﴾ الذي كانوا يؤمنون به، ويعتقدونه، ويستعملونه؛ ليوهمهم أنه على طريقتهم، وليس بعيدًا عنهم، ولا معاديًا لهم، حتى إذا ما حدَّثهم عن وحدانية الله صدَّقوه، وإذا ما دعاهم إلى الإيمان أجابوه.

ووصل إلى قرار!! وأراد القوم الخروج في يوم عيد، وأرادوه أن يذهب معهم:

﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ مريض لا أستطيع الخروج معكم، فدعوني هنا، وكان بالفعل سقيمًا من عنادهم، متعبًا من كفرهم، وتركه القوم وخرجوا إلى عيدهم ولهوهم!!

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾

وتحقق مراده: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ وتركوه وخرجوا إلى عيدهم ﴿مُدْبِرِينَ﴾ أي: معرضين عنه، وعن اهتمامهم بخروجه معهم.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾

﴿فَرَاغَ﴾ أي: ذهب سريعًا، وهو في سرية تامة ﴿إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ من الأصنام ﴿فَقَالَ﴾ لها استهزاءً وسخرية ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ من هذه الأطعمة التي تركها القوم بين أيديكم!!؟ أي: لم لا تأكلون؟ وطبعًا، لم تنطق الأصنام!!

فقال استهزاءً: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾؟

﴿فَرَاغَ﴾ مال ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وبدأ فيهم ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ حتىٰ حطَّمهم إلَّا كبيرًا لهم تركه ؛ لعل قومه إليه يرجعون بالسؤال، عمَّن حطَّم هذه الأصنام.

وعاد القوم من عيدهم وفزعوا مما رأوا من تحطيم أصنامهم!!

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾

يعني: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ إلىٰ إبراهيم ﴿يَزِفُّونَ﴾ يسرعون بالاتهام، حيث قالوا: نحن نعبدها، وأنت تكسرها؟

وعالَنهم بالحقيقة حيث:

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

يا قوم: أين عقولكم ؟

﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ بأيديكم من الأصنام؟

﴿وَٱللَّهُ﴾ عز وجل هو الذي ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهو الذي ينفع وهو الذي يضر، وهو الأَوْلىٰ بعبادتكم !! فاعبدوه، واتركوا هذه الآلهة الكاذبة.

ولم يجد القوم عندهم جوابًا لما قال، لذا: لجأوا إلىٰ ما يفعله كل الطغاة مع الدعاة:

﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾

وبالفعل: أوقدوا النيران، وألقوا فيها إبراهيم عليه السلام؛ عقابًا له علىٰ ما فعل، وليتخلصوا منه، ومن دعوته لهم، وحربه لآلهتهم.

ولكن!! هل يتخلىٰ الله عز وجل عن أوليائه؟ أبدًا.

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

نعم، أرادوا أمرًا، وأراد الله غيره، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، إذْ قال الله تعالىٰ للنار: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ولم تحرق آلة الحرق إبراهيم عليه السلام ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ ..!!

وبالرغم من هذه الآية البيِّنة التي نصر الله بها إبراهيم علىٰ قومه: لم يؤمن هؤلاء الناس بدعوة إبراهيم عليه السلام، وظلُّوا علىٰ كفرهم، وعبادة أصنامهم!!

وتركهم إبراهيم، وهاجر من بينهم!!

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

أي: ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ مهاجر من ديار الكفر هذه ﴿إِلَىٰ﴾ حيث أراد ﴿رَبِّي﴾ فإنه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلىٰ ما فيه صلاح أمري وديني.

ثم دعا ربه قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: هب لي ولدًا صالحًا، يكون عوضًا لي عن الأهل والعشيرة، يؤازرني في الدعوة، ويبلِّغ معي الرسالة.

وأجاب الله دعاءه:

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

بشره الله تبارك وتعالىٰ بثلاثة أشياء:

أولًا: بولد من الذكور.

ثانيًا: يبلغ سن الرشد.

ثالثًا: يكون حليمًا.

ورزق الغلام، وكبر الغلام:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

وترعرع الغلام، ووصل إلىٰ السن الذي يساعد فيه أباه، ويسعىٰ معه في أموره.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ ورأىٰ إبراهيم عليه السلام رؤيا في منامه!! ولأن رؤيا الأنبياء حق: فقد حدَّث بها ولده: ﴿قَالَ﴾ إبراهيم لولده ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ

﴿أَذْبَحُكَ﴾ ولا أدري ماذا أفعل ﴿فَانظُرْ﴾ معي، وقل لي ﴿مَاذَا تَرَىٰ﴾ أن نفعل؟ ولم يخف الغلام، ولم يبكِ، ولم يجادل، بل ﴿قَالَ﴾ علىٰ الفور ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

لقد عرف الغلام أن هذه الرؤيا هي أمر الله، ومع أمر الله ينبغي أن يُقال سمعنا وأطعنا، وليكون الأمر هيِّنًا علىٰ أبيه أيضًا: قال لوالده ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ خلال ذبحك لي تنفيذًا لأمر الله ﴿مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: فافعل، ولا تحمل من أمري هماً.

وخضع إبراهيم، وولده ـ عليهما السلام ـ لأمر الله، وبدآ في التنفيذ!!

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أمرهما الله، وخضعا لمشيئته، ورضيا بحكمه ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ يعني أرقد إبراهيم ولده علىٰ جبينه ليذبحه، وضع السكين علىٰ رقبته: تحقق المراد من أمر الله، ولم تعمل السكين عملها، بمانع من القدرة الإلٰهية.

يقول الله تعالىٰ:

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾

ونادى المولىٰ سبحانه إبراهيم عليه السلام، قائلًا: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ التي أريناك إياها، وحققت المطلوب، وأطعت ربك، وعلىٰ هذا: سنجزيك جزاءً حسنًا؛ حيث ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وأنت من المحسنين.

حقًّا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي رآه إبراهيم من ذبح ولده ﴿لَهُوَ الْبَلَاءُ﴾ الاختبار الصعب ﴿الْمُبِينُ﴾ الكاشف لمعادن المطيعين، وقد نجح فيه إبراهيم عليه السلام وولده.

وكانت النتيجة هي هذه الإنعامات الإلٰهية: يقول الله تعالىٰ:

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

يعني لمَّا أطاع إبراهيم عليه السلام ربه، في رؤياه ذبح ولده!! أنعم الله عليه بهذه الأمور:

الأول: فداء ولده ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي: فديناه من هذا الذبح ﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي: بكبش ضخم الجثة، وقد صار الذبح سُنَّة باقية حتىٰ اليوم، وإلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

الثاني: السلام علىٰ إبراهيم إلىٰ يوم الدين ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾

الثالث: وصفه بالإحسان ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقد جازيناه جزاءً حسنًا؛ لأنه من المحسنين.

الرابع: وصْفه بالإيمان ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين بكل ما نوحيه إليهم، ونأمرهم به.

الخامس: بشارته بولد آخر ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ وهو ولده الثاني من امرأته «سارة».

السادس: جعل هذا الولد ﴿نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جزاءاً لطاعته وصبره.

السابع: إلقاء البركة عليهما ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ﴾.

الثامن: بشارته بأن يكون لإسحٰق ذرية ﴿وَ﴾ جعلنا ﴿مِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾.

وهكذا: يكون إنعام الله تبارك وتعالىٰ علىٰ عباده الصالحين.

ثم يقص الله عز وجل علىٰ نبينا عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام، **قصة ثالثة:** من قصص إخوانه المرسلين، وهي: **قصة موسىٰ وهارون** عليهما السلام.

فيقول بإيجاز شديد، ذاكرًا نعم الله عليهما:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾ أنعمنا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾:

أولًا: بالنبوة والرسالة.

ثانيًا: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي كانوا يعيشون فيه تحت سلطان فرعون وقومه.

ثالثًا: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ موسىٰ وهارون وقومهما، علىٰ فرعون وقومه ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

رابعًا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة ﴿ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ البليغ البيان، فيما اشتمل عليه من الأحكام والحدود.

خامسًا: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: الطريق المستقيم في الأقوال والأفعال.

سادسًا: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

سابعًا: وصفهما بالإحسان ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقد جازيناهما جزاءً حسنًا؛ لأنهما من المحسنين.

ثامنًا: وصفناهما بالإيمان ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين بكل ما نوحيه إليهما، ونأمرهما به.

وهكذا: يكون إنعام الله تبارك وتعالىٰ علىٰ عباده الصالحين.

ثم يقص الله عز وجل علىٰ نبينا عليه الصلاة والسلام، **قصة رابعة**: من قصص إخوانه من المرسلين وهي: **قصة إلياس** عليه السلام، فيقول جل وعلا:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

أي: ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿إِنَّ إِلْيَاسَ﴾ وهو نبي من بني إسرائيل ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين دعوا إلىٰ توحيد الله.

وهذه قصته: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ بني إسرائيل: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله، وتخافونه؟

أين عقولكم يا قوم؟ ﴿أَتَدْعُونَ﴾ أتعبدون ﴿بَعْلًا﴾ وهو صنم كان بالشام ﴿وَتَذَرُونَ﴾ أي: وتتركون ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ سبحانه، وهو الله، فلا تعبدونه؟

اعلموا يا قوم: أن الذي تتركونه هو اللهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ﴿ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الذي خلقكم وخلقهم، ورزقهم ويرزقكم، فآمنوا به، واعبدوه.

ماذا فعلوا؟ يقول الحق سبحانه:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾

يعني: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ولم يؤمنوا بدعوته، ولم يعبدوا الله، بل ظلُّوا يعبدون بعلهم!!

وعلىٰ هذا: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ للعذاب يوم الحساب.

وقليل منهم لا يعذَّبون، وهم الذين آمنوا، ووحَّدوا الله، وأخلصوا في عبادته: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم لا يعذبون، بل يكرمون.

وأما إلياس فقد أنعمنا عليه:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

نعم، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ إلىٰ يوم القيامة ثناءً جميلًا؛ حيث يقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾.

ووصفناه بالإحسان: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ووصفناه بالإيمان: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم يقص الله عز وجل علىٰ نبينا عليه الصلاة والسلام، **قصة خامسة**: من قصص إخوانه من المرسلين، وهي: **قصة لوط** عليه السلام، فيقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿إِنَّ لُوطًا﴾ عليه السلام ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين دعوا إلىٰ توحيد الله.

وهذه قصته بإيجاز شديد:

﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ من الهلاك الذي حل بهم، نتيجة اقترافهم الفاحشة التي ما سبقهم بها من أحد من العالمين، وهي إتيان الذكور دون النساء.

﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ بقيت ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ وهلكت معهم، كما هكلوا.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ عقابًا لهم.

ثم يقول ربنا لأمة محمد ﷺ مذكِّرًا وواعظًا لهم: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ أي: علىٰ بلادهم المدمَّرة، وآثارهم الشاهدة بالهلاك ﴿مُّصْبِحِينَ ۞ وَبِٱلَّيْلِ ۗ﴾ أي: صباحًا ومساءً، وترونهم، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتتعظون؛ فتؤمنون!!

ثم يقص الله عز وجل علىٰ نبينا صلوات الله وسلامه عليه، **قصة سادسة**: من قصص إخوانه من المرسلين، وهي: **قصة يونس** عليه السلام، فيقول جل جلاله:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿وَ﴾ كذلك ﴿إِنَّ يُونُسَ﴾ عليه السلام ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين دعوا إلىٰ التوحيد.

وهذه قصته بإيجاز: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ هرب ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء.

وبينما السفينة تسير في البحر: هاجت الريح، وعلا الموج، وكادت تغرق بمن فيها لثقلها، وأرادوا تخفيف حمل السفينة: فاقترحوا أن يلقوا أحدهم.

واقترعوا مَن يكون؟ ﴿فَسَاهَمَ﴾ يونس مع الجميع في هذا الاقتراع: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي: الذين وقعت عليهم القرعة فألقوه في البحر!!

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ وابتلعه في بطنه، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: ويونس ملام لذهابه إلىٰ البحر، وركوبه السفينة، دون إذن ربه، عندما غضب من قومه، وتركهم.

يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ الذاكرين الله كثيرًا ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ﴾ أي: بطن الحوت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: إلىٰ يوم القيامة، يعني لهلك في بطن الحوت، ولكن أدركته عناية الله، حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

يعني: فأخرجناه من بطن الحوت، ونجيناه من الهلاك.

نعم.. ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ ألقيناه ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ في المكان الخالي، الذي لا ماء فيه ولا نبات ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ عليل مما أصابه من الحبس في بطن الحوت، ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ بقدرتنا ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ من قرع، يأكل منه، ويعيش عليه، ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ﴾ برسالتنا ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ يدعوهم إلىٰ الإيمان بالله وتوحيده وعبادته!!

﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ به وبما أرسل به إليهم، ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلىٰ حين انقضاء آجالهم. هذه هي خاتمة قصص الصافات.

ثم تبدأ السورة: في الحديث المباشر مع كفار هذه الأمة.

لعلنا نذكر أن ربنا عز وجل قال للنبي ﷺ في الآيات الأولىٰ من السورة ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ [الصافات: ١١]!! وكان ذلك علىٰ سبيل الإنكار؟

وناقش الكفار في قضية التوحيد، واليوم الآخر، وضرب الأمثلة لهم بالموحدين من الرسل، وهلاك المكذبين لهم!!

وهنا: يقول رب العزة لمحمد ﷺ مرة أخرىٰ:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: فاسألهم علىٰ سبيل الإنكار ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾؟

كيف ينسبون إلىٰ الله ما لا يحبونه لأنفسهم؟ ﴿أَمْ﴾ أننا ﴿خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾ كما يزعمون ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ حاضرون عملية الخلق هذه؟

ثم يرد المولىٰ عليهم هذه المزاعم، فيقول سبحانه:

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

يعني: لقد كذبوا، حينما جعلوا الملائكة بنات، وجعلوهم ـ كذلك - بنات الله، وبلغ من ﴿إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ أي: من كذبهم أنهم جعلوا لله سبحانه الولد، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في كل هذا.

هل اصطفى الله واختار البنات علىٰ البنين؟ يا لهم من مخبولين كاذبين!!

يقول تعالىٰ لهم: ﴿مَا لَكُمْ﴾ ما الذي أصابكم؟ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الفاسد؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون أنه سبحانه منزَّه عن الولد؟

﴿أَمْ لَكُمْ﴾ أي: عندكم ﴿سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ دليل واضح علىٰ أن لله ولداً؟

إن كان عندكم دليل علىٰ ذلك: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الذي فيه هذا الدليل ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون!!

ويقول عز من قائل:

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

يعني: ﴿وَ﴾ بما قاله هؤلاء المشركون، فقد ﴿جَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ﴾ سبحانه ﴿وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ وهي الملائكة ﴿نَسَبًا﴾، وهذا: واضح البطلان، ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ نفسها ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: هؤلاء المشركين الكاذبين ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في العذاب يوم القيامة؛ بسبب هذه الأقوال والمعتقدات الفاسدة.

ثم نزَّه المولىٰ عز وجل نفسه عن أقوالهم هذه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ المولى به، من الشريك والولد ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم ينزِّهونه سبحانه، ولا يصفونه إلَّا بما هو أهله عز وجل.

وبعد أن ذكر الله عز وجل الدلائل علىٰ بطلان ما يقوله الكفار في حق الله تعالىٰ: يبيِّن أنهم لا يُفْتِنون ويقنعون أحدًا بما هم عليه، إلَّا من كتب الله عليه الشقاء، وأراد له الضلال، حيث يقول سبحانه:

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾

أي: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ أي بمضلين عن الحق، ومبعدين عن الإيمان ﴿إِلَّا مَنْ﴾ قد سبق عليه في علم الله أنه ﴿هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: من أهل النار، الذين يَصْلون عذابها، لا تغتروا بما تشعرون به من القدرة علىٰ إغوائكم أتباعكم.

وأما الملائكة الذين قلتم عنهم ما قلتم، ونسبتم إليهم ما ليس فيهم!! فهم يقولون:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

وصف الملائكة أنفسهم بثلاث صفات في هذه الآيات: إذ قالوا: ﴿وَمَا﴾ أحد ﴿مِنَّآ إِلَّا﴾ وهو موصوف بما يلي:

أولًا: ﴿لَهُۥ مَقَامٌ﴾ في العبادة والخضوع لله تعالىٰ ﴿مَّعْلُومٌ﴾ لا يتجاوزه، ولا يتعدَّاه.

ثانيا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ أنفسنا حول العرش عبودية لله.

ثالثًا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ بحمد الله، المنزِّهون له عز وجل عما يليق بذاته.

يعني لا صلة لنا بما يقوله المشركون عنا، بل نبرأ منهم، ومما نسبوه لنا، ونسبونا إليه.

هذا هو واقع الأمر، وهذه هي: قضية التوحيد واضحة.

والعجيب: أن المشركين هؤلاء، كانوا قبل بعثة محمد ﷺ، كما يحكي عنهم ربنا سبحانه. إذ يقول:

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

أي: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾ قبل أن يبعث إليهم محمد ﷺ: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾ أي: كتابًا ﴿مِن﴾ كتب ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مثل: التوراة، أو الإنجيل، لآمنَّا بالله، و ﴿لَكُنَّا﴾ بهديه، وما فيه ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

وهم كاذبون في ذلك إذْ لمَّا جاءهم الكتاب، وهو القرآن: ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ وكذَّبوا محمدًا، وحاربوه ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ نتيجة كفرهم به، وتكذيبهم لمن جاء به، وهو محمد ﷺ!!

علىٰ كل حال: فمع وضوح الحق، وظهور دلائله، فإن المعركة بينه وبين الباطل مستمرة إلىٰ يوم القيامة، ولا ينبغي أن يضعف أهل الحق، أو يتسرب الشك إلىٰ قلوبهم، خاصة: وأن النصر حليفهم، يقول العلي القدير:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ ووعدنا ﴿لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وهي: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ علىٰ أعدائهم في الدنيا وفي الآخرة.

﴿وَ﴾ كذلك سبقت كلمتنا ووعدنا في اللوح المحفوظ، وهي: ﴿إِنَّ جُندَنَا﴾ الحاملين لراية دعوتنا، المبلغين لرسالتنا، المدافعين عن بلادنا وعبادنا ﴿لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أعداءهم، في كل عصر ومِصر.

لذلك: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: فأعرض عنهم يا محمد، واصبر علىٰ أذاهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلىٰ مدة يسيرة، ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ وانتظر ما سوف ينزل بهم، ويحدث لهم، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ فسوف يرون ما لا يرضيهم، من الهوان والعذاب؛ جزاء عنادهم وتكذيبهم.

ماذا تقول؟ إنهم ينكرون هذا العذاب، ويستعجلونه استهزاءً؟

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿أَفَـ﴾ ينكرون، و ﴿بِعَذَابِنَا﴾ الذي تخوِّفهم به يستهزؤن، و ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ وقوعه!! دعهم يستهزؤن!!

﴿فَإِذَا﴾ وقع بهم، و ﴿نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ بديارهم هذا العذاب: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ الذين دعوتهم إلىٰ الإيمان، وخوَّفتهم هذا العذاب، ولم يؤمنوا.

﴿وَ﴾ أما أنت: فـ ﴿تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ اتركهم، وأعرِضْ عنهم، ولا عليك منهم، ﴿وَأَبْصِرْ﴾ انتظر ما يحدث لهم من العذاب ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ منه، ويعانون أشد صنوفه وأنواعه. ثم تختم السورة بهذه الخاتمة الشريفة:

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

يُنزِّه الله تعالى نفسه ويقدِّسها ويُبرئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون، تعالى الله وتنزَّه وتقدَّس عن قولهم ووصفهم علواً كبيراً.

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: مَن أحب أن يكتال بالمكيال الأوفىٰ من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه:

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ✻ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ✻ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

✻ ✻ ✻

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة صٓ

سورة مكية، وهي تعرض لهلاك الطغاة، وإعزاز الله تعالىٰ لعباده المرسلين، ورحمته بهم، ونصرته لهم، وتبدأ بقوله عز وجل:

﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾

﴿صٓ ۚ﴾: حرف من حروف العربية، جاء به المولىٰ هكذا علىٰ غير المألوف من كلام العرب؛ ليلفت أنظارهم ويجذب اهتمامهم فيسمعوا ما بعده؛ فتلزمهم الحجة، ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ذي الشرف، والمكانة العالية، التي يرتفع إليها، ويعلو بها من آمن به، وعمل بما فيه، وهو قسم جوابه متعلق بقضية التوحيد.

والمعنىٰ: والقرآن ذي الذكر إن الإله واحد، وليس كما يزعم الكافرون من تعدد الآلهة.

وعلىٰ هذا: فما الذي دفعهم إلىٰ هذا التعدد للآلهة؟ يقول عز قوله:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾

أي: أن سبب موقفهم هذا هو العناد والخلاف لرسول الله ﷺ.

ألا يخافون نتيجة هذا الكفر والعناد؟

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾

خاصة: وقد ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: قرونًا كثيرة كفروا وعاندوا، نزل

بهم العذاب ﴿فَنَادَواْ﴾ واستغاثوا، وطلبوا الخلاص، لكن بعد فوات الأوان ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: وليس الحين حين فرار ومهرب ونجاة.

والذين عاندوا وخالفوا النبي ﷺ كفروا:

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾

﴿وَعَجِبُوٓاْ﴾ واستبعدوا ﴿أَن جَآءَهُم﴾ بالدعوة إلىٰ التوحيد ﴿مُّنذِرٌ﴾ رسول منهم وليس من الملائكة، وقالوا عليه ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، ثم قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ﴾ الكثيرة ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ هو الذي يدعو إليه، ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي يقوله ﴿لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ لم نسمع به من قبل، وهو أمر عجيب!!

ولم يقولوا ذلك فقط: بل ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ﴾ الكبار والسادة ﴿مِنْهُمْ﴾ يقولون للعامة وبقية الناس ﴿أَنِ ٱمْشُواْ﴾ استمروا ﴿وَٱصْبِرُواْ﴾ واثبتوا ﴿عَلَىٰٓ﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِكُمْ﴾ ولا تطيعوا محمدًا في هذا التوحيد الذي يدعوكم إليه، حيث ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي يدعونا إليه: ﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ به أن يجعلنا أتباعًا له، حتىٰ يترأس علينا.

ثم إننا ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يقوله ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهي النصرانية، ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ بالقطع ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ وكذب.

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

ثم ظهر حسدهم وسبب عنادهم، إذ قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ يعني: لِم ينزل عليه هذا الشرف من بيننا؟ لمَ لمْ يكن علىٰ واحد منا..؟

وهكذا أنكروا نُبُوَّة محمد ﷺ ويرد الله عز وجل عليهم!! نعم، يرد الله عز وجل عليهم إنكارهم نُبُوَّة محمد ﷺ من ثلاث جهات:

الأولىٰ: أنهم في شك، والمقام مقام تصديق ﴿بَل هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ﴾ وهو القرآن، وذلك بسبب الحسد، ولكنهم سوف يصدقون ﴿لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ ولكن بعد فوات الأوان.

الثانية: أنهم لا يملكون خزائن رحمة الله ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ فيوزعون النبوة علىٰ مَن يشاءون، حسب هواهم؟

الثالثة: أنهم لا يملكون السماوات والأرض وما بينهما ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ﴾؟ إن كان لهم هذا الملك: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ والوسائل الموصلة إلىٰ السماء، وليأتوا بالوحي وينزِّلوه علىٰ مَن شاءوا غير محمد.

إنهم لا يستطيعون، حيث إنهم ﴿جُندٞ مَّا﴾ حقير ﴿هُنَالِكَ﴾ في عالم السماوات والأرض ﴿مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ المهزومين، إذن فليؤمنوا، وليتبعوا محمدًا، وإلَّا فقد:

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۖ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٤﴾

نعم، كذب هؤلاء رسلهم فماذا حدث لهم؟ يقول تعالىٰ: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فوجب عقابهم، وقد عوقبوا.

فماذا تنتظرون؟ يقول المولىٰ سبحانه:

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾

أي: ما ينتظر ﴿هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ وهي نفخة الفزع، قبل يوم القيامة ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ ليس لها من رجوع.

والعجيب أنهم يقولون استهزاءً: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا﴾ في الدنيا ﴿قِطَّنَا﴾ أي نصيبنا الذي يخصنا من العذاب ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾.

لذلك يأمر الله نبيه ﷺ بالصبر عليهم، فيقول له:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

يعني: ﴿ٱصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ﴾ أذى قومك لك، وعلىٰ ﴿مَا يَقُولُونَ﴾ في حقِّك من التكذيب لك، ﴿وَٱذْكُرْ﴾ لكي تستطيع الصبر بما تستفيد من العبر والدروس: إخوانك من الأنبياء السابقين وما حدث لهم، وتذكر السورة تسعة من الأنبياء: ثلاثة منهم علىٰ سبيل التفصيل، وستة علىٰ سبيل الإجمال، **القصة الأولىٰ هي قصة داود** عليه السلام:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ الذي اكتمل له من صفات السعادة في الدنيا والآخرة عشرًا:

الأولىٰ: أن الله أمر محمدًا ﷺ أن يتأسى به في الصبر علىٰ طاعة الله.

الثانية: وصفه بالعبودية ﴿عَبْدَنَا﴾ وفي هذا غاية التشريف.

الثالثة: وصفه بالقوة علىٰ طاعة الله، والبعد عن المعاصي ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: القوة.

الرابعة: وصفه بأنه رجَّاع إلىٰ الله وإلىٰ طاعته في أموره كلها ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

الخامسة: سخَّر الله الجبال معه يسبحن ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي: في المساء والصباح.

السادسة: حشر الله له الطير، تجتمع إليه إذا أراد.

السابعة: ﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطير ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ترجع معه التسبيح لله تعالىٰ.

الثامنة: قوّينا ملكه ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

التاسعة: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: أعطيناه النبوة والفهم والإصابة في الأمور.

العاشرة: وآتيناه أيضًا ﴿فَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ حيث جعلناه قادرًا علىٰ التعبير عن كل ما يخطر بالبال، ويحضر في الخيال؛ بحيث لا يختلط شيء بشيء، ولا ينفصل كل مقام عن المقام الآخر.

وبعد هذا الثناء العظيم، والمدح الإلٰهي الحميم لداود عليه السلام: يذكر الله تعالىٰ تلك الواقعة التي وقعت له من أمر الخصمين، إذ يقول الله سبحانه:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾؟ وهذا: أسلوب تشويق لسماع ما بعده.

ومعناه: وهل علمت ﴿نَبَؤُا۟﴾ أي خبر ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ المتخاصمَيْن ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ إذْ صعدوا على سور المسجد، لمَّا منعوا من الباب ﴿إِذْ﴾ حينما ﴿دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ عليه السلام، ﴿فَـ﴾ لمَّا رآهم أمامه، وقد دخلوا بهذه الطريقة ﴿فَزِعَ مِنْهُمْ﴾ فلمَّا رأوا فزعه منهم.. ﴿قَالُوا۟﴾ له: ﴿لَا تَخَفْ﴾ فنحن ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ جئنا إليك لتفصل بيننا فاسمع منا، و ﴿ٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ولا تجر على أحد منا، بأن تظلم أو تتجاوز الحق ﴿وَٱهْدِنَآ﴾ بحكمك وحكمتك ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ وسمع منهم داود عليه السلام.

وقال أحد المتخاصمَيْن:

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾

هذه هي القضية:

﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾ الذي معي: هو ﴿أَخِى﴾ صديقي أو زميلي ﴿لَهُۥ﴾ من الأغنام ﴿تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ﴾ أنا ﴿نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فقط، ومع ذلك: ﴿فَـ﴾ قد ﴿قَالَ﴾ لي ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ اجعلها لي ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ وألحَّ عليَّ، وطلب ذلك مني بشدة، فاحكم بيننا.

وعلى الفور حكم داود عليه السلام:

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قَالَ﴾ داود عليه السلام لمن قال له ذلك، وقبل أن يسمع من الآخر: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ﴾ ضم ﴿نَعْجَتِكَ﴾ الوحيدة ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ الكثيرة، وهو حكم صحيح، ثم قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ عادة ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كما حدث من صاحب هذه النعاج الكثيرة، ولا ينجو من هذا البغي ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وبعد أن أصدر عليه السلام هذا الحكم: اكتشف أنه ـ والله أعلم ـ قد تسرَّع فيه؛ حيث حكم لأحد الطرفين قبل أن يسمع من الآخر، بهذا.. ﴿ظَنَّ﴾ أي: عرف ﴿دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ اختبرناه، وامتحنا حكمته التي آتيناها له، وأيقن أنه قد أخطأ في تسرُّعه هذا، مع أنَّ الحكم صحيح، ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ أي: سأله المغفرة من هذا الخطأ الذي لا يليق منه، وهو هذا التسرُّع بالحكم، قبل سماع جميع الخصوم، ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: ساجدًا لله علىٰ وجهه؛ خضوعًا وإذعاناً، واعترافًا بالتقصير، وطلبًا للعفو والغفران، ﴿وَأَنَابَ﴾ أي: رجع إلىٰ الله بالتوبة.

ملحوظة هامة: ما يُنقلَ في بعض كتب التفسير حول فتنة داود عليه السلام خلاف ما ذكرناه، هو من الإسرائيليات، التي دخلت إلىٰ تفسير كتاب الله تعالىٰ عن طريق النقل عن علماء أهل الكتاب، ولا أساس لها من الصحة.

لذا: وجب التنبيه؛ ليحذر منها مَن يقرأ في كتب التفسير.

علىٰ كل حال، لمَّا استغفر داود عليه السلام ربه، وخرَّ راكعًا، وأناب، قال الله تعالىٰ:

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

أي: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ﴾ أي: تسرُّعه في الحكم، ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ من الفضل ﴿عِندَنَا﴾ في الدنيا ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ زيادة خير ﴿وَ﴾ في الآخرة ﴿حُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وهي الجنة.

وبعد تمام الكلام علىٰ هذه الواقعة التي تدل علىٰ دقة داود عليه السلام، وعلىٰ حكمته، واعترافه بمخالفة الأولىٰ، ومسارعته إلىٰ الله في التوبة، يكون الإنعام الإلٰهي بتفويض خلافة الأرض إليه، يقول الله سبحانه:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

يخاطب الله في هذه الآية الكريمة نبيه داود عليه السلام، ويُلقي إليه دروسًا وتعاليم، هي له عليه السلام، ولكل مَن ولَّاه الله عز وجل شأنًا من شؤون الآخرين.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلناك خليفة لمن كان قبلك من الأنبياء، الذين قاموا بالحق، ونصروه، وحكموا به، وعملوا بمقتضاه، لذلك: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ بعد أن تسمع منهم جيدًا، وتبصر الأمر واضحًا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ في سماعك للخصوم، أو في قضائك لهم، وحكمك فيهم؛ ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوىٰ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: شرعه، ودينه، وعدله، فإن الذين يحكمون بين الناس بغير الحق، ويتبعون الهوى: نسوا يوم الحساب، وهؤلاء يضلون ـ بالضرورة ـ عن سبيل الله، فلا تكن منهم حيث ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

وهل يظن أحد أن يوم الحساب هذا غير آت؟! كلَّا:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾

نعم، يوم الحساب كائن وواقع لا محالة؛ وإلَّا فيكون الخلق كله عبث في عبث، ﴿وَ﴾ نحن ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيهما ومن فيهما، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق ﴿بَٰطِلًا﴾ أي: عبثًا، بل خلقنا كل هذا الخلق ليعبدوا، ويوحِّدوا، ثم نجمعهم يوم القيامة؛ فنثيب المطيع، ونعذب الكافر، وأما الخلق للعبث، فـ ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إذْ يرون أنه لا بعث ولا حساب، بل هي أرحام تدفع، وقبور تبلع، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يوم بعثهم ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ التي تنتظرهم.

وهذا: هو العدل، أَلَّا نسوي بين المصلح والمفسد:

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾

يعني ﴿أَمْ﴾ نُسوِّي بين المطيع والعاصي، فـ ﴿نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بربهم ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي يطيعون بها ربهم، ويصلحون بها البلاد، ويسعدون بها العباد ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟ إنَّ هذا لا ينبغي ولا يصح أبدًا، ﴿أَمْ﴾ نُسوِّي ـ أيضًا ـ بين المصلح والمفسد، فـ ﴿نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين ﴿كَٱلْفُجَّارِ﴾ الكافرين؟ إنَّ هذا ـ كذلك ـ لا ينبغي، ولا يصح أبدًا.

لذلك: لابد من البعث، والحساب، حتىٰ يتميز الذين آمنوا وعملوا الصالحات من المفسدين في الأرض، وحتىٰ يدخل المتقون الجنة، ويُساق الفجار إلىٰ النار.

إنَّ المولىٰ سبحانه قال للنبي ﷺ ـ فيما سبق ـ، منذ آيات قلائل:

أولًا: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧] ليصبر علىٰ أذى المشركين.

وثانيًا: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧] ليستفيد من دروس قصته.

وهنا: يقول له **ثالثًا:**

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

يعني، وهذا ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ لا تفارقه البركة، التي تنال كل مَن عمل به، أنزلناه إليك ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وينظرونا في معانيها، ويعملوا بتعاليمها ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ ويتعظ بها ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أصحاب العقول.

وتنتهي قصة داود عليه السلام، لتبدأ **قصة أخرىٰ** وهي: **قصة سيدنا سليمان** عليه السلام.

يقول ربنا عز وجل:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾

أي: نِعْم العبد سليمان؛ حيث ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إلىٰ الله، مثل أبيه في صفات الكمال، وكذلك جعلناه عليه السلام نبيًّا.

ثم يذكر الله عز وجل ما يدل علىٰ أنَّ سليمان أواب إلىٰ الله تعالىٰ، فيقول جل وعلا:

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

اذكر يا محمد ﴿إِذْ﴾ وقت أن ﴿عُرِضَ﴾ الخيل ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على سليمان ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ يعني: بعد الظهر، وهذه الخيْل: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرجل الرابعة ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ السريعة إذا سارت، وقد شغله هذا الاستعراض عن الصلاة، حتى غابت شمس هذا اليوم!! وأدرك سليمان ذلك: فندم، وتاب إلى الله عز وجل.

وقال نادمًا: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ أي: عن الصلاة ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ الشمس ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ أي: وحجبها الليل، وأراد أن يزيح ما شغله من النعم عن طاعة المنعم من طريقه: فقال لأتباعه: ﴿رُدُّوهَا﴾ أي ردوا الخيل ﴿عَلَىَّ﴾ فأحضروها له مرة ثانية، ﴿فَطَفِقَ﴾ أي: فأخذ يمسح بالسيف ﴿مَسْحًۢا﴾ أي يضرب بسيفه ﴿بِٱلسُّوقِ﴾ منها ﴿وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: يذبحها ويقطعها؛ لأنها شغلته عن الصلاة.

ويلاحظ: أنه لم يتلفها؛ لأن الخيل كانت مأكولة اللحم في شريعته.

ولأن سليمان عليه السلام شغله استعراض الخيل عن ذكر الله، حتى فاتته صلاة العصر، فقد ابتلاه الله عقابًا لذلك بما تذكره هذه الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾

يعني ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي: اختبرنا سليمان؛ حينما قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة من نسائي، وكل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، فلم تلد إلَّا واحدة، جاءت بشق رجل، أي: بولد مشوَّه.

يقول النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لو قال إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون**» البخاري، كتاب: الجهاد، باب: من طلب الولد للجهاد (الحديث: ٢٨١٩).

وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ أي: مريضًا، لا نفع فيه.

وانتبه سليمان عليه السلام إلى هذا الاختبار!! ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلى ربه مستغفرًا تائبًا.

ثم: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾

استغفر سليمان عليه السلام ربه، أدبًا مع الله عز وجل، وتقدم لسؤال الفضل من الله قائلًا: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾، ثم طلب الهبة من ربه قائلًا: ﴿وَهَبْ لِى﴾ وحدي حتى يكون معجزة لي ﴿مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى﴾ ولا يكون ﴿لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أن يسلبه مني، ﴿إِنَّكَ﴾ إن تغفر لي، وتهب لي ذلك: فـ ﴿أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ صاحب الفضل والعطاء.

وأجابه ربه وحقق له سؤله، إذ قال:

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾

أي: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ بحيث جعلناها تحت تصرفه ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ إذا أمرها ﴿رُخَآءً﴾ لينة، إلى ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أراد لها.

﴿و﴾ كذلك: سخرنا له ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ تعمل بأمره، منهم: ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ يبني له الأبنية الشاهقة القوية المتينة، ومنهم: كل ﴿غَوَّاصٍ﴾ يغوص في البحار، ليستخرج اللؤلؤ وغيره.

﴿وَ﴾ منهم: ﴿ءَاخَرِينَ﴾ غير هؤلاء ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ مقيدين ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ وهي القيود، وهؤلاء هم متمردوا الجن، ومَن عصاه منهم.

ثم قلنا له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ لك يا سليمان من الملك والمال والسلطان ﴿فَٱمْنُنْ﴾ أي: أعط منه ما شئت لمن شئت ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ ما شئت عمن شئت، فلك حرية التصرف في العطاء والمنع منه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عليك منا في هذا أو ذاك.

ثم تنتهي قصة سليمان عليه السلام بالاشارة إلى منزلته عند الله يوم القيامة، إذْ يقول رب العزة جل وعلا:

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ أي: لسليمان ﴿عِندَنَا﴾ فضلًا منا وتكرمة له ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ قربى ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: ومرجع حسن، ومرد كريم، في الجنة.

وتبدأ **القصة الثالثة**، التي يذكِّر الله بها محمدًا ﷺ، وهي: **قصة أيوب** عليه السلام، يقول الله سبحانه:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد، ولتستفد الأمة من قصة: ﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ عليه السلام ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: دعاه، قائلًا: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ﴾ بتعب ومشقة وضرر ﴿وَعَذَابٍ﴾ من الألم النفسي والبدني.

واستجاب له ربه، وقال له:

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ يعني: اضرب برجلك الأرض، فضرب الأرض برجله، فنبعت عين ماء منها، فقال له ربه: ﴿هَٰذَا﴾ الماء ﴿مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ﴾ تغتسل فيه ﴿وَشَرَابٌ﴾ تشرب منه، فاغتسل، وشرب؛ فبرأ وشفي من مرضه بإذن الله.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَ﴾ بعد شفائه: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ الذين ماتوا من قبل؛ حيث أحييناهم له، ﴿وَ﴾ رزقناه ﴿مِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ كل ذلك ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ له؛ جزاء صبره علىٰ طاعة الله.

وليكون ذلك ﴿ذِكْرَىٰ﴾ ودرسًا في الصبر علىٰ قضاء الله، وسعة فضله سبحانه ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الذين يوفِّقهم الله للإفادة من هذه الدروس والعبر.

كما أنعمنا عليه حينما حلف ذات يوم ليضربن امرأته مائة ضربة لأمر غضب عليها فيه، بأن قلنا له، ليبرَّ في يمينه، دون إيذائها:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

يعني: ﴿وَخُذْ﴾ أمسك ﴿بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ حزمة من نبات صغير هش ﴿فَاضْرِب بِّهِۦ﴾ زوجتك، فتكون قد بررت يمينك بضربها ﴿وَلَا تَحْنَثْ ۗ﴾ فيه، وقد قلنا له ذلك حيث ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ﴾ علىٰ البلاء، راضيًا بالقضاء.

ثم أثنىٰ الله عليه بهذه الصفة، التي يشترك فيها الأنبياء، والتي يلفت المولىٰ إليها نظر الحبيب ﷺ، إذ قال عن أيوب: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إلىٰ الله.

ومن هنا: تظهر أهمية التوبة من الذنب، والرجوع إلىٰ الصواب، وعدم الإصرار علىٰ الخطأ، ولو كان يسيرًا.

يذكِّر الله تعالى حبيبه ﷺ ببعض الأنبياء العظام، حيث يقول له:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾

أي: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ هؤلاء ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ أصحاب القوة في العقيدة ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ والبصيرة في الدين، ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم﴾ لنا بصفة خَالِصَةٍ لا شائبة فيها، هي ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ الآخرة، والتفكير فيها، والاستعداد لها.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أيضًا ﴿عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ المختارين ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ فهم خيار من خيار.

ثم يقول له أيضًا:

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

أي: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ أيضًا ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ﴾ واعتبر بهم، ولتستفد أمتك من دروسهم وحياتهم، ﴿وَكُلٌّ﴾ منهم ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

وفي نهاية ذكر هؤلاء المختارين، والتذكير بهم، يقول ربنا عز وجل:

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكرناه: ﴿ذِكْرٌ﴾ للتذكير والاعتبار، والإفادة منه، ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عند ربهم ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: حسن مرجع.

ثم فسر المولى حسن المآب هذا بقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ * مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾، ويقال لهم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ من ربكم أيها المتقون ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ فاطمئنوا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا﴾ لكم في الجنة ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ ما له انتهاء، ولا انقضاء.

اللهم إنا نسألك أن تجعلنا معهم بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين.

وبعد أن ذكر الله، وذكَّر بحال السعداء من الأنبياء، وعباد الله المتقين، يذكر هنا، ويذكِّر سبحانه، بحال الأشقياء الكافرين، فيقول الله تعالى:

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾

أي: ﴿هَٰذَا﴾ الذي ذكرناه سابقًا هو جزاء عباد الله المؤمنين، ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ الخارجين عن طاعة الله، المفسدين في البلاد، الظالمين للعباد، عندنا ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ لسوء منقلب ومرجع.

ثم بيَّن ربنا عز وجل هذا المنقلب السيئ بقوله سبحانه:

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾

يعني: مرجعهم إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾ هي مقرهم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ فراشهم، وبئس الدخول دخولهم.

ويقال لهم: ﴿هَٰذَا﴾ ماء قد اشتدت حرارته، وهذا ماء قد اشتدت برودته

﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ إنه ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ فالحميم: الذي أُغليَ حتى انتهى حرّه، والغسَّاق: ما يسيل من جلودهم من الصديد والدم، ﴿وَ﴾ شراب، وطعام ﴿ءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ وعلىٰ مثاله ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ فيه الشيء وضده؛ نكاية بهم، وتعذيبًا لهم.

ثم يزج بفريق آخر من أهل النار، يدخل عليهم، ويقال:

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾

أي: ﴿هَٰذَا﴾ فريق ﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ في النار، وهنا يجيب رؤساء الكفر قائلين: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ﴾ ولا نريد اليوم رؤيتهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟﴾ أي: داخلون في ﴿ٱلنَّارِ﴾ معنا.

وعندما يسمع الأتباع هذا الترحيب السيئ بهم من الذين كانوا يقودونهم في الدنيا:

﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾

يعني: يردون علىٰ الرؤساء قائلين ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ الأحق بأن يقال لكم ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ﴾ حيث إنكم ﴿أَنتُمْ﴾ الذين ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أي: هذا العذاب ﴿لَنَا﴾ حيث أغويتمونا وأغريتمونا بالكفر، وهذا قرارنا وقراركم ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ الذي نحن وأنتم فيه.

ثم ﴿قَالُوا۟﴾ دعاءً علىٰ مَن أغروهم بالكفر، وأوقعوهم في العذاب ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا﴾ أسباب ﴿هَٰذَا﴾ العذاب ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: مضاعفًا ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾.

ثم يتذكر أهل النار ـ وهم في خصوماتهم هذه ـ فريق المؤمنين:

﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: أهل النار، لبعضهم البعض ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ﴾ معنا ﴿رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ في الدنيا ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ الذين يخالفوننا؟

يا تُرىٰ: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ وكانوا أهل فضل، لا يستحقون أن نسخر بهم؟ ﴿أَمْ﴾ أنهم معنا في النار، وقد ﴿زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فلا نراهم؟ وهذا من باب التحسر علىٰ حالهم، والندم الذي لا يفيد علىٰ كفرهم.

ثم يقول ربنا عز وجل، يا محمد:

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي أخبرناك به، وأوحيناه إليك ﴿لَحَقٌّ﴾ لا شك فيه، وهو لون من تَخَاصُمِ ﴿أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ مع بعضهم البعض، وقد أخبرناك به لتحذره أمتُك.

نسأل الله تبارك وتعالىٰ النجاة من هذا المصير، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

بدأت السورة الكريمة بالحديث: عن القرآن، وعن التوحيد، وعن رسالة النبي ﷺ، وقد أمره ربه عز وجل: بالصبر، والذكر، وقدَّم له طائفة من إخوانه الأنبياء، الذين صبروا، وتذكَّروا، وأنذروا؛ وهنا: يأمره بالبلاغ، وإعلان رسالته، رضي المنْذَرون، أو رفضوا، إذْ يقول له:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ وأعلن للدنيا كلها هاتين القضيتين:

الأولىٰ: إنك رسول الله ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ﴾.

الثانية: أن الإلٰه واحد ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ لهذا الكون، وما فيه ومن فيه ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ لكل شيء، والذي هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ والمالك لكل شيء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يقهر ﴿ٱلْغَفَّارُ﴾ لذنوب مَن تاب وآمن به ورجع إليه.

يا محمد: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ وأعلن للدنيا كلها أن هذا الذي قلت، من أنك رسول الله، وأنَّ الإلٰه

واحد لا شريك له: ﴿هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ خبر جليل الشأن، رفيع القدر، لا يعرض عنه إلَّا غافل، و ﴿أَنتُمۡ﴾ أيها المشركون ﴿عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾ وبالتالي: فأنتم غافلون عن ما فيه نفعكم، وإنقاذكم من عذاب الله.

يا قوم: أنا أخبركم عن الملأ الأعلىٰ، وهذا من دلائل نبوتي.

علمًا بأنه ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ﴾ سابق ﴿بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾، يا قوم: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: ما يوحىٰ إليَّ ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ﴾ لكم من عذاب الله ﴿مُّبِينٌ﴾ واضح، لا أخفيٰ عنكم شيئًا.

سأروي بعض أخبار الملأ الأعلىٰ، التي أوحيت إليَّ، وما كان لي بها من سابق علم قبل هذا الوحي، يقول لي ربي عز شأنه:

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾

يعني: اذكر لهم ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾ وهو آدم عليه السلام.

﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ﴾ وأتممت خلقه ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ ودَّبت فيه الحياة: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ﴾ كلكم ﴿سَٰجِدِينَ﴾ سجود تحية، وتعظيم لله.

وتمت تسويته، ونُفختْ فيه الروح:

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

أي: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ علىٰ الفور؛ طاعة لأمر الله ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ الذي كان معهم وشمله الأمر، مع أنه لم يكن منهم، فقد ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ ورفض أن يسجد لآدم، وبذلك: عصىٰ إبليس ربه ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وسأله ربه عن هذا السلوك:

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾

أي: ما الذي منعك يا إبليس من طاعة أمري أهو الكبر، أم الغرور؟

وكلاهما ذميم، ومع أيٍّ منهما: فقد خرجت عن طاعتي، وامتثال أمري!!

وأجاب اللعين:

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ إبليس متبجحًا ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ولذلك لم أسجد له، وفاتَه: أن الآمر له بالسجود، هو مَن خلقه، كما ينطق بها هو إذْ يقول: ﴿خَلَقْتَنِى﴾.

ولهذا العصيان والتكبُّر، ولهذه المخالفة والمجادلة، طرده المولىٰ من رحمته:

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ له ربنا عز وجل ﴿فَٱخْرُجْ﴾ فورًا ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود مرجوم.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ﴾ أيضًا ﴿لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء، وهو يوم القيامة.

وأدرك إبليس حجم الكارثة، التي نزلت به، ودفعه خبثه إلىٰ محاولة الإلتفاف حولها.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يعني: أمهلني، وأخِّرني، ولا تُمِتني إلىٰ يوم بعث الخلائق، وحدَّد اللعين الإمهال إلىٰ يوم البعث: لأنه لا موت بعد البعث، وبذلك: فقد أراد الهروب من الموت نهائيًا.

ولكن: رَدَّ الله عليه مَكْرَه:

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ له ربنا عز وجل ﴿فَإِنَّكَ﴾ كما طلبت أن تكون ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ الذين أُمهلهم، ولا أُميتهم.

ولكن: لا إلىٰ يوم البعث كما طلبت، بل ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ **وهو يوم** النفخة الأولى، التي يموت عندها الخلائق جميعًا، **وتموت أنت معهم، وتُبعث،** وتُحاسب، وتُخلَّد في النار أيها اللعين.

وخاب أمل إبليس، وبطل مكره، وهنا:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾

أقسم اللعين بعزة الله، قائلًا: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: عباد الله ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بالكفر، والمعاصي، وسيطيعونني ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أغويهم، ولا يطيعونني؛ لأنهم يخافونك، ويحتمون بك، ويلجأون إليك، ويستعيذون بك مني.

وُيصْدِر الحق حكمه العادل:

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ ربنا عز وجل ﴿فَالْحَقُّ﴾ أنا ﴿وَالْحَقَّ﴾ هو ما ﴿أَقُولُ﴾، وأنا أقول: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ ومن ذريتك ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: من الذين تغويهم ويتبعونك ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

يقول النبي ﷺ: هذا ما أوحي إليّ، وهو ما أُخبركم به، وما كان لي من علم به قبل أن يوحىٰ إليَّ به، فأنا رسول الله: أدعوكم إلىٰ توحيد الله وعبادته.

يقول المولىٰ عز وجل، يا محمد:

﴿قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم:

أولًا: ﴿مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: إنذاري لكم ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ آخذه منكم.

ثانيًا: ﴿وَ﴾ أنتم تعرفوني جيدًا، وتعرفون أنه ﴿مَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ الذين يدَّعون ما ليس فيهم، ولا لهم.

ثالثًا: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وتذكرة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾، فكونوا أَوْلىٰ الناس بحمله، والتشرُّف به، وتبليغه.

رابعًا: ﴿وَ﴾ علىٰ أية حال ﴿لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ خبره، وما فيه من الوعد والوعيد، والبعث والنشور ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي: يوم القيامة.

ولكن بعد فوات الأوان، فآمنوا إن كنتم تعقلون!!!

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزُّمَر

وهي سورة مكية، تتحدث عن القرآن الكريم، وكونه منزلًا من عند الله تعالىٰ، كما تتحدث عن منزِّل هذا القرآن، وهو الله عز وجل.

وتتحدث ثالثًا: عن ضرورة عبادة الله والإخلاص له، وهذا: هو غرضها العام، الذي تدور حوله موضوعاتها العديدة.

والسورة: تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في صُنْعه، وتدبيره، وشرعه.

ثم بيّن ربنا عز وجل ما في هذا القرآن بقوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾

يعني أن ما في هذا القرآن هو الحق الخالص، لذلك: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾ وفق ما جاء فيه وأمر به، وكن ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: فاعبده وحده لا شريك له.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾

﴿أَلَا﴾ إن الحقيقة: أنه ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ أي: العبادة الصادقة،

الخالصة من كل رياء، وهي التي يؤديها المؤمنون، ﴿وَ﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ من غيره ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ آلهة لهم: فإنهم يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وما نتخذهم إلَّا ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ تقرُّبًا ليشفعوا لنا عند الله في كشف الضر وجلب النفع، في الدنيا.

يقول ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المؤمنين والكافرين، يوم القيامة ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ حيث كان الكافرون ينكرون الحق الذي ينادي به المؤمنون، ويحاربونهم بسببه، علىٰ أية حال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ عز وجل ﴿لَا يَهْدِى﴾ للحق ﴿مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: كاذبًا على ربه، مبالغًا في كفره.

إنهم يقولون: إن لله ولدا، لقد كذبوا وكفروا، حيث إنه:

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾

نعم، ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ولو جاز عليه ذلك، كما تظنون: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾ هو واختار بنفسه ﴿مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لا الذي تشاؤن أنتم وتختارون، فضلًا عن أنَّه منزَّه عن الولد والشريك ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي كل شيء عبد لديه، فقير إليه. هو سبحانه الذي:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٥﴾﴾

أي: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ وأنزل الكتاب بالحق، وهو القادر علىٰ بعث خلقه وحسابهم، ومجازاتهم، فهو الذي ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ يُلفُّه حوله بقدرته ﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ﴾ وهو الذي ﴿سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى﴾ في مسار لا يتخطاه، وذلك مستمر ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ عنده، وهو يوم القيامة،

﴿أَلَا﴾ إن ذلكم ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب، الذي لا يقهر ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لمن تاب وآمن وأناب إلىٰ ربه.. وكذلك هو سبحانه الذي:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾

أي: أنه عز وجل ﴿خَلَقَكُم﴾ مع اختلاف أجناسكم، وألوانكم، وألسنكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي آدم ، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا﴾ أي: من نفس آدم ﴿زَوْجَهَا﴾ وهي حواء، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أي: وخلق لكم ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ تنتفعون بها، وهو ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ فَطَوْر نطفة، وطور علقة، وطور مضغة، وهكذا ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ وهي: ظلمات البطن، والرحم، والمشيمة، ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ القادر علىٰ كل ذلك، هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ كله وله الحمد كله، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يستحق العبادة، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ فكيف تُصرفون عن عبادته، مع وضوح كل ذلك لكم.. علىٰ كل حال:

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

يعني: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟﴾ بهذا الإله الواحد القادر العظيم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ وعن إيمانكم، وعن عبادتكم، ﴿وَ﴾ في الوقت ذاته ﴿لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ ولا يأمر به، وإن كان يريده؛ حيث لا يقع في ملكه إلَّا ما يريد، هذا ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ بالإيمان، والعمل الصالح، والعبادة ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ ويزدكم عليه من فضله، ﴿وَ﴾ في الوقت ذانه ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يعاقب أحد بذنب أحد غيره، ﴿ثُمَّ﴾ في النهاية ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

﴿تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر، ويجازيكم عليه، حيث ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: يعلم ما تكنه السرائر، وتخفيه الضمائر.

هذا وبعد أن تقرر واتضح: أن المستحق للشكر وحده هو الله سبحانه وتعالىٰ!!

وأنَّ هذا الشكر لصالح الإنسان!! وأنَّ كل نفس عن نفسها فقط تحاسب!!

بيّن ربنا عز وجل: طبيعة الكافر، وأنه يوحِّد في الضراء، ويكفر في الرخاء، حيث يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ أصاب ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الكافر ﴿ضُرٌّ﴾ بلاء أو شدة: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ وحده ﴿مُنِيبًا﴾ راجعًا ﴿إِلَيْهِ﴾ تاركًا دعوة الأصنام التي يعبدها؛ لعلمه بعدم نفعها، ﴿ثُمَّ إِذَا﴾ ذهب عنه الضر، و ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ أعطاه ربه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي من الله: ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ بل أكثر من هذا النسيان ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شركاء ﴿لِّيُضِلَّ﴾ نفسه وغيره ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: عن سبيل الله، وهو الإسلام، ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهذا الكافر وأمثاله: مهدِّدًا ومخوِّفًا، ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ وما يدعوك إليه من المعاصي ﴿قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا، وهي قصيرة ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾.

ثم يبيِّن ربنا عقب ذلك طبيعة الموحِّدين في الضراء والسراء، الذين لا رجوع لهم إلَّا إلىٰ الله، ولا اعتماد لهم إلَّا علىٰ فضله سبحانه، إذ يقول جَلَّت حكمته:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾

يعني: أيهما خير؟ الذي ﴿هُوَ قَٰنِتٌ﴾ لربه، خاضع له، قائم بوظائف الطاعات ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ يعبد ربه سبحانه، وهو في الوقت ذاته: ﴿يَحْذَرُ

﴿ٱلْآخِرَةَ﴾ وعذابها، فيستعد بالعمل الصالح لها ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: جنته ورضوانه، أو الكافر الذي جعل لله أنداداً ليُضِلَّ عن سبيله؟ ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ فيؤمنون، ويطيعون ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيكفرون؟ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتعظ، ويعرف هذا الفرق: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أصحاب العقول السليمة.

ولمَّا اتضح الفرق بين المؤمن والكافر، وانتفت المساواة: بين مَن يعلم ويعمل، وبين مَن لا يعلم ولا يعمل أمر الله رسوله ﷺ: أن يخاطب المؤمنين، قائلًا له:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ربكم يقول لكم: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أُطالبكم بشيئين:

الأول: تقوىٰ الله ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

وهذا إحسان: وعندي ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالطاعة ﴿حَسَنَةٌ﴾ في الآخرة، وهي الجنة.

الثاني: إن لم تتمكنوا من الإحسان في أرضكم، فهاجروا منها إلىٰ غيرها ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ واصبروا على مفارقة الأوطان ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير حصْرٍ وبدون عددٍ أو وزن.

ثم يأمر ربنا عز وجل نبيَّه ﷺ بهذه الأوامر:

الأمر الأول: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾

يعني أخبرهم أنك مأمور بالعبادة، والإخلاص فيها.

والأمر الثاني: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

يعني أخبرهم أنك مأمور أن تكون: أول من أطاع، وانقاد لله، وأسلم.

والأمر الثالث: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

يعني أخبرهم أنك تخاف من عذاب الله يوم القيامة؛ إذا كان منك معصية.

والأمر الرابع: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾

يعني أخبرهم أنك امتثلت لأمر الله، وعبدته، وأخلصت له الدين، على أبلغ وجه وآكده؛ وذلك: إظهارًا لشدة تمسُّكك بالإسلام، وقطعًا لأطماعهم الفارغة، في صرفك عن دين الله.

إذا كان هذا مع حبيب الله!! فكيف الحال معنا، وهل فهمنا المطلوب منا؟

اللهم أعنا على عبادتك والإخلاص لك فيها، يا رب العالمين اللهم آمين.

هذا، ولمَّا بلغ البيان لوجوب رعاية توحيد الله، وضرورة عبادته الغاية القصوى: هدَّد ربنا وتوعَّد غير الموحِّدين، وبين عاقبتهم.. قائلًا:

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾

يعني: أنتم أيها الكافرون أعرف بأنفسكم من غيركم ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم﴾ عبادته ﴿مِّن دُونِهِۦۚ﴾ سبحانه، فالوزر عليكم، وأنتم الخاسرون!! ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ هم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بإهلاكها في النار، وخسروا كذلك ﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾، وذلك: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا أهليهم؛ فصاروا جميعًا إلى النار، وهذا حقيقة: هو الخسران ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾، ثم بيَّن هذا الخسران: فقال عز وجل: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ أي طبقات ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ﴾ كذلك ﴿ظُلَلٞ﴾ أي: فراش ومهاد، ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب المذكور ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ المؤمنين!! ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ ولا تتعرَّضوا لِمَا يُوجب سخطي.

ولمَّا ذكر ربنا الخاسرين، وهم الذين يعبدون غير الله، وهدَّدهم: ذكر الفائزين، وهم الذين يعبدونه سبحانه، وبشَّرهم، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾

يعني: ﴿وَ﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟﴾ أي: ابتعدوا عن الطَّاغُوتِ، وهو كل ما يُعبد من دون الله، ورفضوا وترفعوا ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ ﴿و﴾ إلىٰ جانب ذلك: ﴿أَنَابُوٓا۟﴾ رجعوا ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، هؤلاء: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ الحسنة من الملائكة، وذلك: عند الموت، وفي القبر، ويوم البعث، تقول لهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]؟

وعلىٰ ذلك: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلىٰ الله.

فهم ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ﴾، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصفون بهذه الصفات: هنيئًا لهم؛ حيث إنهم ﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾ إلىٰ الحق والصواب في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ حقيقة ﴿هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أصحاب الفطَر النقية، والعقول الذكية السليمة.

وبعد هذا التفصيل عن أهل الجنة وأهل النار: يقول ربنا للحبيب ﷺ، الذي كان يحرص أشد الحرص علىٰ إيمان قومه:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾

يعني: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ وأنه يدخل النار؛ لأنه من أهل الضلال ﴿أَفَأَنتَ﴾ تستطيع أن تُنقِذَ مَن في النار؟ لا، إنك لا تنقذ ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ لأنه مَن يضلل الله فلا هادي له، ومَن يهديه فلا مضل له، فَقَرَّ عينًا، وأهدأ بالًا، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وليس عليك إلَّا البلاغ فقط.

ثم يخبر ربنا عن عباده السعداء، وما أعدَّ لهم؛ تشويقًا للمؤمنين، وحثًّا على الطاعة، ونوال الرضوان:

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: ﴿لَٰكِنِ﴾ العباد ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ ووُصفوا بما سبق ذكره ﴿لَهُمْ﴾ عندنا، ومن فضلنا ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ منازل رفيعة، فوقها منازل أرفع، وهذه الغرف: ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ بإحكام، وزخرفة، تَسُرُّ العين، وتُسْعِدُ الخاطر، وهذه الغرف كذلك: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إمتاعًا، وإسعادًا لأهلها، ذلك: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ لعباده المتقين، ووعده واقع لا محالة، وصدق الله إذ يقول: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

ما ذُكِر من نعيم الله في الجنة: باق، لا يزول، ولا يتحول، بخلاف نعيم الدنيا وزخرفها، فهو سريع الزوال، شديد التحول، ولا ينبغي تضييع الباقي بسبب الفاني:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الإنسان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه، بقدرته ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخله، وجعله بقدرته ﴿يَنَٰبِيعَ فِى﴾ جوف ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ بقدرته ﴿يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ ذابلًا، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾ بقدرته ﴿حُطَٰمًا ۚ﴾ هشًا متكسِّرًا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي يحدث بقدرة الله لِحطام الدنيا: ﴿لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ تدفعهم للاعتبار، وطاعة الله، وعدم الانشغال بالدنيا، وتضييع الآخرة.

ولمَّا حبَّب ربنا تبارك وتعالى في الإقبال على الطاعة، وعدم الانشغال بمتاع الدنيا الزائل، بيَّن أن ذلك لا يكون: إلَّا إذا شرح الله الصدور، ونوَّر بفضله القلوب، فقال عز من قائل:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

يعني: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فاهتدىٰ ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ كمن طبع علىٰ قلبه، فلم يهتد لقسوته..؟ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ لأنها لا تلين ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ قساة القلوب ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الهدى والحق والنور ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر.

إنَّ طريق الهداية والنور والسعادة هو القرآن، يقول الله سبحانه:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ٱللَّهُ﴾ عز وجل ﴿نَزَّلَ﴾ علىٰ سيدنا محمد ﷺ القرآن العظيم، وقد وصفه هنا بصفات أربع:

الأولىٰ: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فلا حديث أفضل ولا أعلى ولا أنفع منه.

الثانية: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ أي: يشبه بعضه بعضًا في الصدق والبيان، والحكمة، والإيجاز.

الثالثة: ﴿مَّثَانِىَ﴾ أي: يثني ويكرر، دون ملل منه، أو صرف عنه، كما يحتوي علىٰ الأمور الثنائية، مثل: الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد...إلخ.

الرابعة: ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ ترعد ﴿مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ﴾ تطمئن ﴿جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: عند ذكر وعده بالحسنىٰ، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكتاب، وهو القرآن: ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ من عباده، الذين شرح الله صدورهم أولًا لقبول الهداية، ﴿وَ﴾ أما ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ولا يشرح صدره: يجعل قلبه مظلمًا قاسيًا، منافيًا لقبول الهداية ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ بعد ذلك ﴿مِنْ هَادٍ﴾ يهديه.

obeikandl.com

هذا الضلال، وعدم الهداية: جزاء القاسية قلوبهم من ذكر الله في الدنيا، وأما في الآخرة: فلهم سوء العذاب.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ كمن هو آمن منعَّم في الجنة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟، أبدًا، لا يستويان!! ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ لهم من خزنة النار ﴿ذُوقُوا۟﴾ جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من المعاصي والآثام.

هذا في الآخرة، وقد ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بالرسل، ولم يؤمنوا ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في الدنيا ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ومن جهة لا تخطر ببالهم.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بهذا الشكل ﴿ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أولًا، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ثانيًا: ﴿أَكْبَرُ﴾ من عذاب الدنيا، إنهم ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ويصدِّقون: ما كفروا، وما عذبوا.

وبعد هذا البيان الشافي والقول الوافي في توضيح طريق الهداية، والدعوة إليه، وبيان الضلال والتخويف منه، يقول تعالىٰ مقررًا ما سبق:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

نعم، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ بيَّنا ﴿لِلنَّاسِ فِى﴾ آيات ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ العظيم ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ما يفيدهم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيؤمنون، فيفوزون. وجعلناه:

أولًا: ﴿قُرْءَانًا﴾ مجموعًا، مُتعبَّدًا به، تلاوةً وعملًا إلى يوم القيامة.

ثانيًا: ﴿عَرَبِيًّا﴾ من جنس كلامهم، أعجز البلغاء والفصحاء عن أن يأتوا بمثله، مع أنه عربي.

ثالثًا: ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ فهو بريء من النقص أو الخلل، وكان كذلك: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله؛ فيمتثلون أوامره، ويجتنبون محارمه.

ولمَّا خوَّف الله عز وجل الكفار من العذاب: بيَّن بعد هذا التخويف فساد مذهبهم بأوضح بيان، وهو ضرب المثل، حيث قال جل وعلا:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

أي: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للمشرك ﴿رَّجُلًا فِيهِ﴾ أي: يملكه ﴿شُرَكَآءُ﴾ عديدون، وهم ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ كل واحد يريد مصلحته منه، وللمؤمن ﴿رَجُلًا سَلَمًا﴾ أي: خالصًا ﴿لِّرَجُلٍ﴾ واحد، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾؟ أبدًا: لا يستويان!! وعلىٰ ذلك: لا يستوي المشرك، الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلَّا الله وحده، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي اختار لعباده الهداية، وأمرهم بها، وأرشدهم إليها، ولكنهم مع ذلك ينحرفون، حقًّا ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

علىٰ أية حال:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ يعني: ستموت ويموتون!!

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ بعد البعث ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تجتمعون ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ و﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ حيث تُثْبِت أنك قد بلَّغت، ويعتذرون هم بما لا فائدة منه.

ثم يصف رب العزة الفريقين، وجزاء كل منهما، فيقول عن أهل الباطل:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ من هذا الذي ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ورد الصدق ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ﴾؟ حيث جمع هذا الظالم بين القول والفعل؛ إذ كذب على الله، وكذَّب رسوله.

هؤلاء: جزاؤهم هو الخلود في جهنم، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ إقامة دائمة ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾؟ بلىٰ، لهم جهنم مقاماً، والخلود فيها جزاءً، ثم يقول ربنا تبارك وتعالىٰ عن أهل الحق:

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَ﴾ أما ﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ وهو رسول الله ﷺ، والذي ﴿صَدَّقَ بِهِ﴾ كذلك: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ فقط ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، هؤلاء جزاؤهم:

أن ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حيث يأمنون من الفزع الأكبر، وأهوال يوم القيامة، وتكفير السيئات، ودخول الجنة، و﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وكان هذا الجزاء:

أولًا: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ من الأعمال السيئة فلا يعاقبهم بها.

ثانيًا: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يثيبهم بحساب الأحسن الذي عملوه فضلًا منه وكرمًا.

إنَّ مما نشاهده، وجرت به العادة: أنَّ أهل الباطل يُخَوِّفون أهل الحق، ويهدِّدونهم، ويُلحِقون بهم كثيرًا من صور الإيذاء.

وقد حسم الله هذا الموضوع إذْ بيَّن: أنَّه عالِم بكل شيء، وأنَّه لا يقع في ملكه عز وجل إلَّا ما يريد، وأن ذلك الابتلاء لحِكَم تقتضيها مشيئته سبحانه، إذْ يقول جل وعلا:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

بلىٰ، الله عز وجل كَافٍ ﴿عَبْدَهُ﴾ المؤمن، الذي توكل عليه، واحتمىٰ بجناحه، ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ يا محمد، أو يا كل مؤمن ﴿بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أي يخوِّفونك بغير الله؛ لأنهم أنكروا، أو تناسوا إحاطته سبحانه بهم، وقدرته عليهم، فلا تهتم، فالله معك في الدنيا وفي الآخرة، وهم قد ضلوا عن الحق:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۞ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ إذ الأمر كله بيد الله عز وجل، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب علىٰ أمره ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ من أعدائه، وأعداء أوليائه؟ بلىٰ.

والعجيب أن هؤلاء الضالين، الذين ينكرون، ويتناسون إحاطة الله بهم، وقدرته عليهم، يقول عنهم ربنا عز وجل:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

يعني ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: هؤلاء الذين يخوِّفونك بغير الله، قائلًا لهم ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح البرهان علىٰ أنه وحده الخالق، ﴿قُلْ﴾ لهم إذن متسائلًا، ومنكرًا ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾ أي ما تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هؤلاء، ماذا يستطيعون؟

أولًا: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ووقع عليَّ ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ هذا عني؟

ثانيًا: ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ بخير، ووصل إليَّ ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ هذه عني؟ إنها ـ أبدًا ـ لا تستطيع هذا، ولا ذاك.

إذن: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ هو يكفني، ويدفع عني ما تخوِّفونني به، ويثبِّتني إن نزل بي منه شيء، ويأجرني عليه، لذلك: ﴿عَلَيْهِ﴾ وحده ﴿يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

ثم يأمر ربنا رسوله ﷺ أن يفاصلهم مهدِّدًا لهم:

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ ما شئتم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ﴾ بما هداني إليه ربي، وعلىٰ كل حال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ وهو أنتم

﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويهينه أمام جميع الخلائق ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ في جهنم ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أبدي خالد.

ومع أن رب العزة يقول له ذلك!! ومع أنه أيضًا يقول للكفار ذلك..!! فقد كان ﷺ يتحرَّق شوقًا لإيمانهم، ويتوجَّع ألمًا لكفرهم، ولذلك.. يخفِّف عنه المولىٰ، فيقول له سبحانه:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

يعني: لا تتألم يا محمد لإصرارهم علىٰ الكفر؛ حيث ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿لِلنَّاسِ﴾ كلهم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الواضح، الذي ينفعهم، ويهديهم، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ به، منهم أو من غيرهم: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ كل الخير، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن هذا الحق: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ويجلب الشر لها، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تلزمهم بالإيمان، أو تحاسبهم علىٰ عدم إيمانهم، بل أنت مبلِّغ ومنذر فقط، وقد بلَّغت وأنذرت.

ثم يبيِّن ربنا عز وجل: أن أرواح الناس جميعًا في قبضته، وبذلك: فهو قدير عليهم، لا يفرُّون منه، ولا يمتنعون من قدرته، إذ يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

هذه آية من الآيات الدالة علىٰ عظيم قدرة الله تعالىٰ، ومعناها: أن الله عز وجل ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ أي: يقبض الأرواح عن الأبدان، بأن يقطع تعلُّقها بها وتصرُّفها فيها، إما ظاهرًا وباطنًا، وذلك ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ أو ظاهرًا لا باطنًا، وذلك في النوم، وهي ﴿ٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾، وبعد ذلك: ﴿فَيُمْسِكُ﴾ روح ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يردها إلىٰ البدن ﴿وَيُرْسِلُ﴾ الروح ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ إلىٰ بدنها عند اليقظة؛ لتظل حية ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو الوقت المضروب لنهاية حياتها.

وبذلك: تفيد الآية الكريمة أن الله سبحانه هو المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه لا غيره، هو الذي يتوفى الأنفس، الوفاة الكبرى والصغرىٰ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التصرف الإلٰهي ﴿لَآيَاتٍ﴾ دالة علىٰ قدرته وعلمه وإحاطته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون، فيؤمنون، ويزدادون إيمانًا علىٰ إيمانهم.

ولكن: هؤلاء لم يتفكروا!!

إنهم يعبدون غير الله!! ويقولون: نحن نعبدهم ليشفعوا لنا عند الله، لذلك يقول المولىٰ عز وجل:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يستنكر المولىٰ عليهم، ويقول ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ﴾ لهم؟ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَ﴾ تتخذونهم شفعاء، حتىٰ ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ شيئًا كذلك؟ كيف يكون هذا؟ أعلمهم بوضوح:

﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أي: ﴿قُل﴾ لهم ﴿لِّلَّهِ﴾ وحده ﴿الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ يأذن بها لمن يشاء، وليس بتحديدكم واختياركم أنتم، ولذلك: فاعبدوه وحده، إن أردتم الفلاح والنجاة!!

خاصة وأنه:

أولًا: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ﴾ وما فيهما ومَن فيهما، وكذلك ما بينهما.

ثانيًا: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجازيكم بما تستحقون.

هؤلاء الذين يشركون مع الله غيره!! ويتخذون بقلَّةِ عقولهم الأصنام لهم شفعاء..!!

فسدت فطرتهم، وانحرفت عقولهم، إذ يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَ﴾ إنه موقف غريب عجيب ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿وَحْدَهُۥ﴾ أمام هؤلاء المشركين: ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ عبست وقبضت ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ﴾ كفروا هؤلاء، والسبب: أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾، ﴿وَ﴾ أما ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ﴾ يعبدونهم ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ سبحانه: ﴿إِذَا هُمْ﴾ في فرح وسرور ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

لذلك: يأمر الله رسوله أن يعلن الحق واضحًا:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد، مفوِّضًا الأمر لله ﴿ٱللَّهُمَّ﴾!! يا ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يا ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، ﴿أَنتَ﴾ وحدك ﴿تَحْكُمُ﴾ وتقضي وتفصل ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ في الدنيا، وكذلك يوم القيامة ﴿فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ افصل واحكم بيني وبينهم يا أعدل الحاكمين.

وما دام الفصل والحكم النهائي: يكون يوم القيامة، فإنَّ المولىٰ يحدِّثنا عن موقف هؤلاء الكافرين في يوم القيامة، فيقول جل وعلا:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ملكية ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وكذلك ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ في حوزتهم: ﴿لَٱفْتَدَوْا۟﴾ أنفسهم ﴿بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ﴾ الذي ينزل بهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ﴿وَ﴾ أيضًا: ﴿بَدَا﴾ ظهر ﴿لَهُم﴾ ﴿مِّنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ﴾ ونكاله بهم ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ أو يخطر ببالهم.

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ ثانيًا ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ بعد أن كانت خافية عليهم، وعوقبوا عليها، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ وأحاط بهم من كل جهة ـ ثالثًا ـ جزاء ﴿مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ في الدنيا، من أمر الإيمان والمؤمنين.

وإذا كان هذا الموقف للكافرين في يوم القيامة، فقد ذَكَرَ موقف آخر من مواقفهم، وهو في الدنيا، حيث قال عز وجل:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾

﴿فَإِذَا مَسَّ﴾ هذا الإنسانُ الكافر ﴿ضُرٌّ﴾ أو وقع في شدة؛ تضرَّع إلينا، و﴿دَعَانَا﴾ لنكشف عنه ضره، ونرفع هذه الشدة، وهذا اعتراف عملي منه أن النفع والنِّعمَ من الله وحده، ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ﴾ أعطيناه ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ تفضيلًا عليه: تنكَّر للمنعم، و ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أي: هذا الفضل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ عندي أي: تعلمي وجهدي واستحقاقي، وليس تفضلًا من أحد، ويكون الرد عليه من المولىٰ سبحانه، إذ يقول له: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ واختبار لك، لنرىٰ: أتشكر أم تكفر، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: أكثر الناس مثلك ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها اختبار لهم.

ولذلك: يقولون مثل ما تقول، وبالفعل: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل قارون.. إذ قال: إنما أوتيته علىٰ علمٍ عندي؛ فماذا حدث لهم إذْ قالوها؟

أولًا: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ في الدنيا، ولا منع عنهم الموت ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

ثانيًا: ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ في الآخرة جزاء ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ وعلىٰ هذا: فلينتبه هؤلاء، حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كذلك: ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ جزاء سَيِّئَاتِ ﴿مَا كَسَبُوا۟﴾، ﴿وَ﴾ في الوقت ذاته ﴿مَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفارِّين وهاربين من عذاب الله.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يعني: ﴿أَ﴾ غفل، وجهل هؤلاء الذين يقولون: إنما أوتيته على علم عندي ﴿وَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ وحده هو الذي ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ﴾ أي: يضيِّقه على مَن يشاء؟! على أية حال، إن في ذلك البسط والقبض للرزق ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ وعبر ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيدركونها، ويعتبرون بها، وأما الكافرون: فهم عمي القلوب عن دلالاتها.

ولمَّا شدد الله على الكفار، وذكر ما أعدَّ لهم من العذاب: ذكر بعد ذلك ما في إحسانه سبحانه وتعالىٰ من غفران الذنوب؛ إذا آمن العبد، ورجع إلىٰ الله تعالىٰ وأناب، حيث يقول جل جلاله:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول بعض الصالحين: هذه أرجىٰ آية لرحمة الله في القرآن، وهي كذلك: عامة في كل كافر يتوب، وفي كل مؤمن عاص يتوب.

ومعناها: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للناس جميعا: ربكم يقول: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالكفر، أو بارتكاب المعاصي والغلو فيها، هذه توصياتي لكم:

أولًا: ﴿لَا تَقْنَطُواْ﴾ لا تيأسوا ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ لمن تاب، بما فيها الكفر لمن آمن، ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ الذي يستر عظائم الذنوب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي يكشف فظائع الكروب.

ثانيًا: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾ توبوا، وارجعوا ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وتخلَّصوا من كفركم، ومن معاصيكم؛ إيمانًا به، وطاعةً له.

ثالثًا: ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي: استسلموا له، وانقادوا لشرعه، وآمنوا بقدره ثم خوَّفهم ليستجيبوا؛ إذ قال: افعلوا ذلك ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ وينزل بكم العقاب ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ إن لم تتوبوا.

رابعًا: ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ بعد توبتكم، وإسلام وجوهكم لله ﴿أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وهو القرآن، وذلك: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وأنتم غافلون، لا تدرون بمجيئه لتتداركوا وتتأهَّبوا.

أيها الناس بادروا بذلك قبل:

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يعني: بادروا بالإيمان أيها الكفار، وبادروا بالتوبة من المعاصي أيها المؤمنون، وذلك: من قبل ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ من النفوس العاصية، ﴿يَا حَسْرَتَىٰ﴾ يا ندامتي ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ وأهملت ﴿فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أي: طاعته، خاصة: ﴿وَإِن كُنتُ﴾ أي: وإني كنت ﴿لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ بدينه، وشرعه.

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ نفس كذلك: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ بالإيمان، أو الطاعة، ﴿لَكُنتُ﴾ في هذا الوقت ﴿مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ عذابه، الناجين من غضبه سبحانه.

﴿أَوْ تَقُولَ﴾ نفس كذلك: ﴿حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ يوم القيامة، وينزل بها ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا؛ لآمنتُ، وأطعتُ ربي ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ المكرمين في هذا اليوم.

ولكن: هيهات هيهات!! إنه لا يفيد ندم وقتها، ولا تحسُّر، ولا أماني، لذلك: فالتوبة الآن، والعمل الصالح الآن.

ورزقني الله وإياكم: الهداية، والإخلاص، والتوبة النصوح.

إذْ يقال لهذا الذي يعلن الندم، ويبدي الحسرة، ويصرخ بالأماني:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

أي: لا نجاة لك اليوم؛ إذْ ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى﴾ وبيَّنْتُ لك الهداية من الغواية ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ عليها ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: الجاحدين.

وبعد هذا الرد علىٰ العصاة والكفرة أصحاب الأماني الكاذبة، يعرض علينا ربنا الحال يوم القيامة؛ لنتدارك أمرنا، ونسارع بالتوبة، ونكون من المتقين، حيث يقول الله سبحانه:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يختلف حال الكافرين العصاة، عن المؤمنين المتقين، حيث ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وكفروا به ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾ بسبب ما ادعوه ونسبوه كذبًا إليه سبحانه، ولا غرابة في هذا!! ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ وإقامة وعذابًا ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هؤلاء؟ بلىٰ، وألف بلىٰ.

﴿وَ﴾ في الوقت ذاته ﴿يُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ ربهم ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بمكان فوزهم في الجنة؛ حيث ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ وهو العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أبدًا.

ولمّا أطال الله عز وجل الحديث حول وعد الله للطائعين بالخير، ووعيده للعصاة بالعذاب: بيّن أنه سبحانه الخالق لكل شيء، والقادر علىٰ كل شيء، قائلًا:

﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

أي: هو ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ والمتصرِّف فيه ﴿وَهُوَ﴾ لهذا ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظ، ومراقب.

لذلك: ﴿لَّهُۥ﴾ وحده ﴿مَقَالِيدُ﴾ أي: مفاتيح ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومن هنا فهو سبحانه: مالك أمرهما، وأمر مَن فيهما، يثيب مَن يشاء، ويعذِّب مَن يشاء، وعلىٰ هذا

فالأمر له وحده ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي أنزلها على رسوله ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

ومع ذلك: فقد دعوا النبي ﷺ لتعظيم آلهتهم، وعبادتها!! وقد أمره ربه أن يردَّ عليهم قائلًا له:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ القوي القادر، الواحد الأحد ﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ وتطلبون مني أن أعْبُدَ بعد هذا البيان الشافي الوافي ﴿أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ بتوحيد الله؟

إن هذا لا يكون أبدًا.

ثم يقول ربنا للمصطفى ﷺ.

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَ﴾ عزتي وجلالي ﴿لَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ فيما أوحي إليك، وفيما أوحي إليهم ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ من باب الافتراض: لَترتَّب على ذلك الافتراض ما يلي:

أولًا: ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الصالح، الذي عملته قبل هذا الشرك المفترض.

ثانيًا: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ في الدنيا، وفي الآخرة.

لهذا لا تطعهم فيما أمروك به، وساوَموك عليه من عبادة غير الله.. ﴿بَلِ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿فَٱعْبُدْ﴾ وأطع ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ لنعمه عليك.

وأما هؤلاء المشركين، فإنهم لو عرفوا الله حق المعرفة: لمَا عبدوا غيره:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

أي: وما عرفوا الله حق معرفته، وما عظَّموه حق تعظيمه، وإلَّا ما عبدوا غيره، وما دعوك ـ كذلك ـ إلى عبادة غيره.

﴿وَ﴾ من عظمته سبحانه: أن الأرضَ ﴿جَمِيعًا﴾ في قَبضَتِهِ وملكه وتصرفه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ﴿و﴾ أن السَّماوات كذلك ﴿مَطْوِيَّـٰتُۢ﴾ ومجموعات ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: بقدرته، ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم يعرض الله ـ بعد ذلك ـ مشهدًا من مشاهد يوم القيامة، إذ يقول جل جلاله:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

في يوم القيامة: تحدث هذه الأشياء التي يحكيها المولىٰ بلفظ الماضي، نظرًا لتحقق وقوعها، وهي:

أولًا: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ وهي نفخة الفزع.

ثانيًا: ﴿فَصَعِقَ﴾ مات من الفزع ﴿مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الخلائق كلهم ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من الملائكة، والحور العين، والزبانية، وغيرهم.

ثالثًا: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ أي: في الصور نفخة ﴿أُخْرَىٰ﴾ وهي نفخة البعث.

رابعًا: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أي: الخلائق التي ماتت ﴿قِيَامٌ﴾ أحياء ﴿يَنظُرُونَ﴾ أمر الله فيهم.

خامسًا: ﴿وَأَشْرَقَتِ﴾ أي أضاءت ﴿ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾.

سادسًا: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ أي: كتاب أعمال الخلائق، الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها.

سابعًا: ﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ليسألهم ربهم عن تبليغ الرسالة، وإجابة أقوامهم لهم ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ وهم الأمة الوسط المذكورة في قوله تعالىٰ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]

ثامنًا: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين العباد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وهو: العدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئًا.

تاسعًا: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من غير تسجيل كتاب، ولا شهادة شاهد، ثم يبيِّن ربنا عز وجل، **الشيء العاشر**.. وهو: كيف يفعل ـ في يوم القيامة هذا ـ بالكافرين؟ فيقول:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

يعني: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ﴾ أي: أفواجًا أفواجاً، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ ووصلوا إليها: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ لاستقبالهم شر استقبال، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ الذين هم: غِلاظ، شداد؛ تقريعًا لهم وتوبيخًا ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من جنسكم، تعرفونهم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: وَحْيَه المنزَّل عليهم، لهدايتكم ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ ويخوِّفونكم ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ﴾ وما يحدث لكم فيه؟ ﴿قَالُواْ﴾ أي الكافرون لخزنة جهنم: ﴿بَلَىٰ ۚ﴾ جاؤونا، وتلوا علينا آيات ربنا؛ فما اهتدينا، ولا انتفعنا بها، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ونحن منهم.

وهنا ﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ﴾ لا خروج لكم منها، وهي داركم ومثواكم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الكافرين.

ثم يبيِّن ربنا عز وجل كذلك، **الشيء الحادي عشر**.. وهو: كيف يفعل ـ في يوم القيامة أيضًا ـ بالمتقين؟ فيقول المولى سبحانه:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

يعني ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ﴾ أي: أفواجًا أفواجًا،

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ ووصلوا إليها ﴿وَ﴾ فرحوا بها ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ لاستقبالهم أحسن استقبال، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ من ربكم ومنا، ﴿طِبْتُمْ﴾ من دنس المعاصي، وطُهِّرتم من خبث الخطايا، لذلك: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ فيها، لا خروج لكم منها، ولا موت لكم فيها.

﴿وَقَالُواْ﴾ حينئذٍ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ لنا في الدنيا بحُسْنِ المصير في الآخرة ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة هذه ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ لا ينازعنا فيها منازع، ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ المتقين.

هذا، ولمَّا بيّن المولىٰ أن دار ثواب المتقين: هي الجنة!! بيّن بعده **الشيء الثاني عشر**.. وهو: أن دار ثواب الملائكة: هي جوانب العرش وأطرافه، فقال جل جلاله:

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

يعني ﴿وَتَرَى﴾ يا محمد ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ القائمين بجميع ما عليهم من الحقوق ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ﴾ جوانب ﴿ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، ﴿وَ﴾ هكذا: ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي بين جميع الخلائق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فيدخل المؤمنون الجنة، ويدخل الكافرون النار، ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وقيل الحمد لله على عدله وقضائه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة غَافر

هذه السورة مكية، وهي تعالج: قضية الحق والباطل، وقضية الإيمان والكفر، وقضية الدعوى والتكذيب، وقضية العُلُو في الأرض والتجبُّر بغير الحق، وبأس الله الذي يأخذ العالين الطغاة المتجبِّرين.

وتسمىٰ كذلك: بسورة (المؤمن)، وسورة (الطَّوْل)، وهي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾

﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالىٰ الموصوف بهذه الصفات:

الأولىٰ: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه، وفي حكمه.

الثانية: ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخلقه، مَن صدق منهم ومَن كذب.

الثالثة: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ للمؤمنين.

الرابعة: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ من جميع العائدين إلىٰ ربهم.

الخامسة: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن تمرد وطغى، وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله وبغىٰ.

السادسة: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ صاحب الإنعام الواسع.

السابعة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يستحق أن يُعبد؛ إذْ لا نظير له في ذاته، وأسمائه، وصفاته.

الثامنة: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع، فيجازي كل واحد بعمله.

هذا هو الله سبحانه وتعالىٰ، ومع ذلك: يجادل في آياته ودلائل قدرته كثيرون.

ولكن.!!

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾

﴿مَا يُجَٰدِلُ﴾ ويعارض ﴿فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المذكورة في القرآن، والمثبوتة في الأكوان، والدالة علىٰ توحيد الله، وقدرته؛ لإنكارها، وإخفاء الحق فيها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسله واليوم الآخر.

وأما الجدال لإيضاح الحق فيها، وحل مشاكلها، ورد الزيغ عنها: فهو من أعظم الجهاد في سبيل الله، وعلىٰ هذا:

﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ ويخدعك ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ وتمتُّعهم بخيراتها، وتقلُّبهم ـ أحيانًا ـ علىٰ أهل الحق، سياسيًّا وعسكريًّا، حيث إن عاقبة أمرهم: إلىٰ العذاب في الدنيا والآخرة.

وما هم فيه: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

تقول: كيف ذلك، ونحن نراهم يتقلبون في البلاد، ويظلمون العباد، دون أن يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر؟ والجواب:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾

أي ليس الكفار الطغاة الذين تراهم يجادلون ﴿فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤] والذين يتقلَّبون في البلاد: هم أول مَن فعل ذلك، إذْ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحًا عليه السلام ﴿وَ﴾ كذَّب ﴿ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ رسلهم، ﴿وَ﴾ **ثانيًا** ﴿هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ﴾ من هذه الأمم ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ فيقتلوه، ﴿وَ﴾ **ثالثًا** ﴿جَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ عنادًا ﴿لِيُدْحِضُوا۟﴾ يزيلوا ويبطلوا ﴿بِهِ﴾ أي: بالباطل ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الذي جاءت به الرسل

من عند الله؛ ولكن ماذا حدث لهم؟ يقول العزيز الحكيم ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: فأهلكْتُهم بسبب أفعالهم هذه ﴿فَـ﴾ انظر وتأمل، وبلِّغ قومك ﴿كَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الذي نزل بهؤلاء، وشدته وألمه حين نزل بهم؟.

ثم يقول ربنا عز وجل مهددًا مكذبي هذه الأمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل هذا العقاب، الذي نزل بمكذبي الأمم السابقة، ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ هؤلاء، وثبت ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

ولمَّا بيّن ربنا أنَّ الكفار يبالغون في إظهار العداوة للمؤمنين: عقَّب عليه بما يبيِّن أن هناك من أشرف الخلائق مَن يُظهر المحبة للمؤمنين، وهم الملائكة، فقال تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

يعني إن كان هؤلاء الكفار يبالغون في عداوتك، فلا تلتفت إليهم، ولا تهتم بهم؛ فإنَّ حَمَلة العرش معك ينصرونك، وهم الملائكة ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ والذين ﴿مَنْ حَوْلَهُۥ﴾، وهؤلاء: يقومون بثلاثة أشياء:

الأول: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ينزهونه، ويثنون عليه بصفات الكمال.

الثاني: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ سبحانه، ويصدِّقون بوحدانيته.

الثالث: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بربهم مثلهم، قائلين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعتْ رحمتك كل شيء، ووسع عِلمك كل شيء. لذلك: نضرع إليك أن تحقق دعاءنا التالي:

أولًا: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أي: دينك وشريعتك.

ثانيًا: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ بأن تهديهم إلىٰ الإيمان، وتلزمهم الاستقامة، وتتم عليهم نعمتك بالغفران لذنوبهم.

ثالثًا: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ﴾ مجتمعين مع بعضهم البعض؛ لتكمل سعادتهم، حيث ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القادر علىٰ كل شيء ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في شرعه وقدره.

رابعًا: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: جزاءها، بأن تهديهم إلىٰ عمل الصالحات في الدنيا، وتعفو عنهم في الآخرة ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ برحمتك الواسعة، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي وقايتهم من جزاء السيئات، ورحمتهم: ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أعظم منه.

هذا هو موقف الملائكة مع المؤمنين يوم القيامة، وأما موقفهم مع الذين يجادلون في آيات الله، فيوضحه قول المولىٰ سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

يعني ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يدخلون النار يوم القيامة، ويمقتون ـ أي يبغضون ـ أنفسهم ويحتقرونها، وفي هذه الحالة: ﴿يُنَادَوۡنَ﴾ من خزنة النار، الذين يقولون لهم ﴿لَمَقۡتُ ٱللَّهِ﴾ لكم ﴿أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ وذلك: ﴿إِذۡ﴾ كنتم ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾ في الدنيا ﴿إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ﴾ وتعاندون، ولا تستجيبون.

وبذلك: عرفوا أن الذي كانوا عليه في الدنيا، وضع فاسد، ولهذا: يتمنون الرجوع إلىٰ الدنيا؛ لعمل الصالحات، حيث:

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾﴾

أي ﴿قَالُواْ﴾ مُقرِّين بالبعث والحساب: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ **الأولى**: موتة العدم، **والثانية**: موتة انتهاء الأجل في الدنيا.

﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ **الأولى**: عند الولادة في الدنيا، **والثانية**: عند البعث في يوم القيامة، وعرفنا بالتالي: قُدرتك ﴿فَٱعْتَرَفْنَا﴾ لك الآن ﴿بِذُنُوبِنَا﴾ وتبنا عنها، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ لنا من النار، والعودة إلىٰ الدنيا للإيمان وعمل الصالحات ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: طريق، أو وسيلة؟

فيكون الجواب علىٰ توسلهم:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي أنتم فيه، ولا سبيل لكم إلىٰ الخروج منه ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّهُۥٓ﴾: كنتم في الدنيا ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ﴾ للإيمان به، والعبادة له ﴿وَحْدَهُۥ﴾: ﴿كَفَرْتُمْ﴾!! ﴿وَ﴾ أما ﴿أَن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ غيره: ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾!! ﴿فَٱلْحُكْمُ﴾ عليكم بالعذاب إذًا: ﴿لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ فالقضاء لله وحده، لا للأصنام والأوثان.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يعني ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى﴾:

أولًا: ﴿يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة علىٰ توحيده.

ثانيًا: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ بالمطر.

وهذا يدعو إلىٰ الإيمان به، ويذّكر بتوحيده وقدرته ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتعظ ويؤمن ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إلىٰ ربه، ويرجع عن الشرك معه، والكفر به.

لذلك: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ حتى ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ عبادتكم له وإخلاصكم في عبادتكم ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

كما أنه سبحانه:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾

ثالثاً: أنه سبحانه ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ لعباده في الدنيا والآخرة.

رابعاً: أنه عز وجل ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: صاحب العرش، وخالقه.

خامساً: أنه تبارك وتعالىٰ ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ أي: الوحي الذي تحيا به القلوب ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بأمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ سبحانه ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ المرسَلين ﴿لِيُنذِرَ﴾ الله بهذا الوحي وما فيه ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يوم القيامة.

ولمَّا ذكر ربنا سبحانه وتعالىٰ أن ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي تلاق أهل السماوات والأرض، والظالم والمظلوم: صفة من صفات يوم القيامة: عدَّد من صفات هذا اليوم أيضًا، ما يلي:

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] **صفة** من صفات يوم القيامة.

وصفة أخرىٰ له: أنه يوم البروز ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ﴾ حيث تبرز الخلائق من قبورها، وتنكشف سرائرهم وأبدانهم، وتبرز كذلك أعمالهم.

وصفة ثالثة: أنه ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ﴾ بعد أن كانوا يظنون، وهم في الدنيا أن الله لا يعلم كثيرًا مما يعملون.

وصفة رابعة: أنه لا مُلْكَ في هذا اليوم إلَّا لله، حيث يقال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾ ؟ أي يوم القيامة، فيكون الجواب: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

وصفة خامسة: أنه يوم الجزاء ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ﴾ جزاء ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر، عملته في الدنيا.

وصفة سادسة: أنه ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾ لأحد في نوال ما يستحق من عقاب أو ثواب.

ثم يبيِّن ربنا عز وجل أن هذا الذي يستحقونه: يصل إليهم سريعًا؛ حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

ويقول المولىٰ للنبي ﷺ: خوِّف قومَك بيوم القيامة، عسى أن يتعظوا، فيؤمنوا !!

وذكر له طائفة أخرى من صفات هذا اليوم، فقال تعالىٰ:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ يعني: وخوِّفهم يا محمد بيوم القيامة الذي من أوصافه أيضًا:

الصفة السابعة: أنه ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ أي: يوم المجازاة القريبة.

الصفة الثامنة: أنه فيها تكون ﴿ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ من شدَّة الخوف ﴿كَٰظِمِينَ﴾ ساكنين لا يُعبِّرون عنه بصياح ولا عويل.

الصفة التاسعة: أنه ليس ﴿لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ محب ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يشفع لهم، فـ ﴿يُطَاعُ﴾ فيهم.

ثم يعرِّفنا ربنا تبارك وتعالىٰ علىٰ ذاته؛ بما يربِّي الهيبة في نفوسنا فيقول: ﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ وهو ما تسترقُه العيون من النظر المحرَّم، ﴿وَ﴾ يعلم كذلك ﴿مَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ أي: ما تكنُّه القلوب، ولا تُفصِح عنه.

﴿وَ﴾ هو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي ﴿يَقْضِى﴾ بين الخلائق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، وهذا هو الله الواحد، ﴿وَ﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي يعبدون آلهة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: فآلهتهم هذه عاجزة ﴿لَا يَقْضُونَ﴾ لا يحكمون ﴿بِشَىْءٍ﴾ لأنهم لا يملكون شيئًا.

حقًّا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فهل يتعظ الكافرون؟ وهل يؤمنون؟

وبعد أن خوَّف الله الكفار بما يحدث في الآخرة: خوَّفهم بما يحدث في الدنيا للطغاة من أمثالهم، فقال جل جلاله:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۖ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

يعني ﴿أَ﴾ غفل هؤلاء المعاندون للإسلام ﴿وَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ويعرفوا أحوال أهلها ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ ويعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ ونهاية وجزاء ﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الطغاة أمثالهم، الذين ﴿كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ في أجسادهم، وأعظم منهم ﴿وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بمصانعم وقصورهم؟ والعاقل ـ كما يقولون ـ مَن اعتبر بغيره!! ولكن: ماذا حدث للطغاة من قبلهم حتى يعتبروا به؟

يقول القوي العزيز: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأهلكهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾!! ﴿وَ﴾ مع قوتهم ﴿مَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من عذابه ﴿مِن وَاقٍ﴾ لهم، يمنع عنهم هذا العذاب.

و ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ من الله ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والآيات المعجزات؛ ليؤمنوا بالله ويتَّبعوا رسله، ﴿فَكَفَرُواْ﴾ بها، وعاندوا الرسل، وحاربوهم، كما فعلتم وتفعلون أيها الكفار، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بعذابه وأهلكهم، حيث ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فخافوه وآمنوا إن كنتم عقلاء.

ثم بعد هذا البيان الموجز المجمل لإهلاك الله للمكذبين: يقص سبحانه قصة من قصص السابقين، الذين كانوا أشد قوة وآثارًا، ويبيِّن عز وجل كيف كذبوا رسل الله، وكيف كان عقابهم شديدًا؟ وهذه القصة هي قصة الطاغية فرعون، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسولنا ﴿مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: معجزاتنا التسع ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وهي دليل واضح علىٰ: وحدانيتنا وقدرتنا.

وذلك ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ملك من ملوك مصر ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وزيره، وأكثر مَن كان يساعده من الوزراء في عِداء موسىٰ عليه السلام ﴿وَقَٰرُونَ﴾ وكان من أغنىٰ الناس وأكثرهم مالًا، فماذا قالوا لموسىٰ حينما دعاهم إلىٰ الإيمان بالله؟ يقول سبحانه: ﴿فَقَالُواْ﴾ له: أنت ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ عنادًا له، وخوفًا من أن يؤمن الناس به.

هذا، ولم يسكتوا عند هذا الحد، بل انتقلوا من القول إلىٰ الفعل، يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾

يعني: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ موسى ﴿بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ يدعوهم إلىٰ الإيمان بالله: لم يقولوا له وعليه ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤] فقط!! بل ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ لإذلالهم، وإجبارهم علىٰ عدم الإيمان بموسى ومتابعته ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾ لخدمتنا، ومع وقوع هذا الأذىٰ فعلًا بمن آمن بموسىٰ: إلَّا أنَّ الله عز وجل يقول ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فرعون وأمثاله ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي في ضياع، وذلك: لأن الله لا يحقق غرض الكافرين، بل يثيب بحسن الجزاء هؤلاء المؤمنين المعذبين، وينصر رسله رغم أنف المعاندين.

ولم يكتف الطاغية بإصدار هذا القرار القاسي، وتنفيذه فقط، بل زاد عليه:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ للذين يرون أن ما نزل بموسىٰ وقومه من العذاب: كاف في ردع موسىٰ، وللذين يرون أن أمر موسىٰ: هيِّن، وللذين يريدون بقاء موسىٰ: ليشغل فرعون عن فسادهم، قال لهؤلاء وغيرهم ممن يعارضون فكرة قتل موسىٰ: ﴿ذَرُونِىٓ﴾ اتركوني ﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ لنستريح من أمره نهائيًّا، ثم قال مستهزءًا: ﴿وَلْيَدْعُ﴾ لنا ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ الذي يؤمن به، ويدعو لعبادته؛ ليخلِّصه منا، والذي يدعوني لقتله: خوفي عليكم منه، حيث ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ الذي أنتم عليه!! ﴿أَوْ أَن﴾ يفسد دينكم، و﴿يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾!! أي: يثير القلاقل والفتن في بلدكم.

ويلاحظ: أن هذا الكلام هو أسلوب الطغاة في مواجهة الدعاة إلىٰ الله، في كل العصور.

ولمَّا وصل موسىٰ هذا التهديد، وعلم به: ماذا فعل؟ يقول المولىٰ سبحانه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

لم يفعل موسى شيئًا إلَّا أنه: لجأ لمولاه، واحتمىٰ به، من ظلم فرعون وتهديده:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لقومه ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ ظالم قاسي القلب ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ فيخاف الله.

فاستعيذوا به في الأزمات، والجؤوا إليه في المُلمَّات؛ يصونكم عن كل البليَّات..!!

فموسىٰ عليه السلام: ما فعل شيئًا إلَّا أنه فوَّض الأمر لله، واعتمد في دفع الأذى من فرعون علىٰ الله وحده!!

ومَن فعل ذلك: قيَّض الله له مَن يدافع عنه، خاصة إذا بذل كل ما في وسعه، وأخلص لله في أمره.

لذلك: قيَّض الله لموسىٰ مَن دافع عنه أعظم دفاع، وحاول تسكين الفتنه بكل وسائل الإقناع، يقول ربنا سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

يعني ﴿وَقَالَ﴾ لفرعون والطغاة معه ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ بالله، وباليوم الآخر، وبموسىٰ ورسالته، وهو ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ولكنه ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ عنهم، قال لهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ كل تهمته ﴿أَن يَقُولَ﴾ أي: أنه يقول: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟ يعني: لا تقتلوه، خاصة: ﴿وَ﴾ أنه ﴿قَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحات ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والدلائل القاطعات علىٰ توحيد الله، ﴿و﴾ أيضًا: ﴿إِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ فيما جاء به: ﴿فَعَلَيْهِ﴾ ضرر كَذِبِهِ وحده لا عليكم، ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ فيما دعاكم إليه، ورفضتموه: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى﴾ ولم يقل كل الذي ﴿يَعِدُكُمْ﴾ به من العذاب؛ جدارة لهم، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في أمره ﴿كَذَّابٌ﴾ في قوله.

وبعد أن أقام الدلائل على عدم صحة قتل موسى: خوَّف القوم من قتله، حيث قال:

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

أي: قال هذا الرجل المؤمن ﴿لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملككم في أرض مصر واضح، شأنكم في الدنيا كلها عال، وسلطانكم نافذ.

فثبِّتوا هذا: بالإيمان بالله، واتباع رسله، والإيمان باليوم الآخر، وحافظوا على هذه النعمة، ثم أدخل نفسه معهم؛ إذ قال: وإلَّا ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾ أي: عذابه ﴿إِن جَآءَنَا ۚ﴾ ونزل بنا، بسبب كفرنا، وقتلنا لموسى، وإيذائنا لعباد الله!!؟

وهنا أدرك فرعون خطورة هذا الصوت، الذي يبدو منه أن صاحبه يؤمن بموسى، ويؤيد دعوته، لذا ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ في حزم وشدة، للناس كلهم؛ ردًّا على صاحب هذا الصوت: ﴿مَآ أُرِيكُمْ﴾ وأشير عليكم، وأحب لكم أن ترْوه ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ من قتل موسى، وجميع القرارات الصادرة في هذا الشأن، ﴿وَ﴾ لذلك ﴿مَآ أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: الصواب.

ولم يسكت هذا الرجل المؤمن الشجاع، بل رد على فرعون، يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾

نعم، خوَّفهم من الهلاك في الدنيا ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ أن يحدث لكم ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

ثم فسَّر ذلك بقوله: ﴿مِثْلَ﴾ جزاء ﴿دَأْبِ﴾ أي عادة ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ﴾ في تكذيب رسلهم، واستمرارهم على الكفر، حيث عذبهم الله وأهلكهم في الدنيا، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فيعاقب بغير ذنب، أو يترك الظالم بغير انتقام.

ثم خوَّفهم كذلك من العذاب في الآخرة؛ إذْ قال لهم:

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

يعني ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن كفرتم بالله، وكذبتم رسله، وقتلتم موسىٰ، عذاب ﴿يَوْمِ ٱلتَّنَادِ﴾ وهو يوم القيامة، الذي يتنادىٰ فيه أهل الجنة وأهل النار، كل منهم يقول للآخر: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف ٤٤]، ثم بيَّن تصرفهم في هذا اليوم:

فقال: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ منصرفين عن موقف الحساب إلىٰ النار وعذابها ﴿مَا لَكُم مِّنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ يمنعه عنكم، أو يخففه عليكم، ﴿وَ﴾ ذلك مؤكد؛ حيث إنه ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ عن الهدى والحق ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: مرشد سواه سبحانه.

ثم أكدَّ ضلالهم عن الهداية، وذلك بتذكيرهم: بظلمهم وإيذائهم للأنبياء من قبل، إذْ قال لهم:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ يا أهل مصر ﴿يُوسُفُ﴾ نبي الله ﴿مِن قَبْلُ﴾ يدعوكم إلىٰ الإيمان بالله ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ومعه الدلائل الواضحة علىٰ صدقه، ﴿فَمَا زِلْتُمْ﴾ أي: أجدادكم،وأنتم من بعدهم ﴿فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ وعدم تصديق له،وإيمان به، طيلة حياته عليه السلام، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ أي مات: ﴿قُلْتُمْ﴾ من عند أنفسكم، وتلبية لشهواتكم ورغباتكم ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ﴾ إلينا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ من عنده، وهكذا: ضللتم بإسرافكم في الكفر، وعدم تصديقكم للأنبياء، و ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

ثم بيّن هذا المؤمن السبب الذي جعلهم: يسرفون، ويشكون، ويضلون، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

الذين يضلهم الله: هم ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ﴾ إبطال ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ معجزاته، ودلائل توحيده، وذلك ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ ودليل سليم ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ من الله، وهذا عمل: بغيض، ممقوت، محتقر، بل ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالىٰ ﴿وَ﴾ كذلك ﴿عِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وأهله: مبغضون، ممقوتون، مكروهون، محتقرون، وقد طبع الله علىٰ قلوبهم بالكفر، و ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ بالضلال ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ مُتعاظم على عباد الله.

ولأن فرعون صاحب قلب متكبر جبار!! ولأن الله سبحانه طبع علىٰ قلبه بالضلال!! فلم يتأثر بأقوال هذا المؤمن الناصح الأمين، بل زاد عتوًّا وعنادًا وضلالًا:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ ردًا علىٰ كلام المؤمن، وخداعًا لعامة الناس: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾ وهو الذي كان يعاونه في الضلال، ويساعده عليه ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ بناءً عاليًا شاهقًا ﴿لَّعَلِّىٓ﴾ أصعد عليه، و ﴿أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ أي: الطرق والمداخل.

ثم وضَّح فقال: ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ولكن: لماذا هذا البناء؟ ولماذا الوصول إلىٰ طرق السماوات ومداخلها؟ يقول عليه لعنة الله: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ وأنظر ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ الذي يدَّعيه، ويدعو إلىٰ عبادته، ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ أي: موسىٰ ﴿كَٰذِبًا﴾ فيما يقول!! وأن الحق الواقع: أنه ليس هناك من إلٰه غيري.

يقول تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وبهذا المنطق ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ وقوله، ﴿وَ﴾ كانت النتيجة: أنه ﴿صُدَّ﴾ ومنع ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: سبيل الهدى والحق والرشاد، وأما بالنسبة لتهديده لموسىٰ، وتمويهه علىٰ العامة، وخداعه لنفسه، وكيده

المستمر، فيقول تعالىٰ عنه عظة لأمثاله: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ في ضياع، وخسران، وليس له أية قيمة أو وزن.

وهنا أعلن هذا المؤمن عن هويته، وجاهر بعقيدته، وواجه فرعون في طغيانه، يقول رب العزة:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾

دعاهم إلىٰ الإيمان علىٰ سبيل الإجمال ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ واعملوا بنصيحتي في الإيمان، لا تقليدًا، ولكن بالدليل الواضح القوي علىٰ وحدانية الله، وقدرته: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ إلىٰ مرضاة الله، والنجاة من عذابه، وليس كما كذب فرعون وقال: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ثم قال مبيِّنًا لهم حقارة الدنيا، وعظمة الآخرة، بقوله لهم:

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

وهنا: يرغِّبهم في الإيمان بشيء من التفصيل:

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ التي شُغِلتم بها، وصرفتكم عن الإيمان: ما هي إلَّا ﴿مَتَٰعٌ﴾ زائل، سرعان ما ينتهي ويفنىٰ، ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ التي لا خروج منها، ولا زوال عنها، فهي إما إقامة في النعيم خالدة، أو إقامة في الجحيم أبدية، ثم أرشد إلىٰ ما يؤدي إلىٰ النعيم الدائم، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا﴾ سيئة ﴿مِثْلَهَا﴾ عدلًا من الله تعالىٰ، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ولو واحدًا ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ من الناس ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا هو الشرط ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ فضلًا من الله تعالىٰ ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا﴾ من صنوف النعيم ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وبعد أن رغبهم في هذا الإيمان: يبدو أنهم قاوموه، وطالبوه بالعودة إلىٰ ما هم فيه من الكفر، ولذلك قال لهم:

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾

يناقشهم هنا تفصيلًا، ويعرض دينه عليهم بكل وضوح، ويقارن لهم بين دعوته ودعوتهم، حيث يقول: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ عن طريق عبادة الله وحده، والإيمان برسله، واليوم الآخر ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ﴾ أنتم ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾؟.

حيث ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وذلك: يؤدي إلىٰ عذاب الله ودخول النار، ﴿وَأَنَا۠﴾ في الوقت ذاته ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ القوي العظيم ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ لذنوب عباده، الذين يتوبون إليه!! ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً لا كذب فيه ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ أن أعبده معكم: ﴿لَيْسَ لَهُۥ﴾ إجابةُ دَعْوَةٍ لأَحدٍ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ إن دعاه ﴿وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أيضًا، واعلموا:

﴿أَنَّ مَرَدَّنَآ﴾ وعودتنا جميعًا ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيجازي كل واحد بعمله، فتوبوا إليه، وآمنوا به، واعلموا أيضًا:

﴿أَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ الكافرين ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ خالدين فيها، فلا تسرفوا، وتوبوا إلىٰ الله، وآمنوا به.

ويبدو أنهم أنكروا عليه ما يقول، ولم يسكتوا عن مقاومتهم له، ودعوتهم إياه إلىٰ الكفر بالله، لذلك حذَّرهم قائلًا:

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

أي: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ﴾ وأدعوكم الآن إليه، وأحذِّركم من مخالفته، عند نزول العذاب بكم، وتندمون حين لا ينفع الندم، وقد بلَّغت، وأنذرت، وأعذرت قدر طاقتي ﴿وَ﴾ الآن ﴿أُفَوِّضُ أَمْرِيٓ﴾ بعد ذلك البلاغ إليكم، والنصح لكم

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ الذي أتوكَّل عليه، واستعين به، و ـ في الوقت ذاته ـ أقاطعكم، وابتعد عنكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يهدي مَن يستحق الهداية، ويضلُّ مَن وجبت عليه الضلالة، وليس علىٰ مَن أمركم بعد ذلك شيء.

ولمَّا قال لهم ذلك: هموا بقتله، فهرب منهم:

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

أي: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ ونجَّاه من ﴿سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ في تهديدهم له ﴿وَحَاقَ﴾ نزل ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ وكان سوء العذاب هذا عبارة عن ثلاثة أشياء:

الأول: الإغراق في الماء حتىٰ الموت.

الثاني: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ بعد الموت، وهم في القبر ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ طيلة أيام الدنيا، حتىٰ يوم القيامة.

الثالث: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقال: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

ثم يدخل فرعون وحاشيته وأتباعه إلىٰ جهنم: فيتخاصمون وهم فيها، ويقُص الله علينا طرفًا من خصوماتهم هذه، فيقول جل وعلا:

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَ﴾ اذكر أيها الإنسان واعتبر ﴿إِذْ﴾ حين ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾ ويتخاصمون، وهم ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ مع بعضهم البعض، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ منهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وتزعَّموا عليهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ﴾ في الدنيا، وفي الدين ﴿تَبَعًا﴾ أي تابعين لكم ومطيعين فيما دعوتمونا إليه!!

﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ اليوم ﴿مُّغْنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾ أي: جزءًا ﴿مِّنَ﴾ العذاب في ﴿ٱلنَّارِ﴾؟

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ جوابًا لهم، وردًّا لسؤالهم: ﴿إِنَّآ﴾ كما ترون ﴿كُلٌّ﴾ نحن وأنتم ﴿فِيهَآ﴾ لا فرق بيننا وبينكم، لا نحمل عنكم، ولا تحملون عنا من عذابها شيئًا، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ﴾ وقضى وفصل ﴿بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾، فأدخَل المؤمنين الجنة، وأدخلنا نحن الكافرين النار، وأعطانا ما نستحق من عذابها.

عند هذا أعاذنا الله وإياكم وجميع المسلمين ـ يحصل اليأس للكافرين من النجاة من هذا العذاب!! فيتجهون إلىٰ الملائكة خزنه النار، يقول الحق سبحانه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾

أي: ﴿وَقَالَ﴾ الكافرون ﴿ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ كلهم ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ الموكلين بعذاب مَن فيها ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾ المحسن إليكم بعدم إيلامكم بهذه النار ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أي: قدر يوم من أيام الدنيا ﴿مِّنَ﴾ هذا ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ الذي نعانيه.

وهنا تجيبهم خزنه النار، وترد عليهم:

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ لهم أي: الملائكة ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة علىٰ وحدانية الله، وضرورة عبادته فلم تؤمنوا!!؟ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الكفار لخزنة النار: ﴿بَلَىٰ﴾ أي جاؤونا، ودعونا إلىٰ الإيمان، ولم نؤمن، حيث كذبناهم، ﴿قَالُواْ﴾ أي الملائكة لهم :إذن ﴿فَٱدْعُواْ﴾ أنتم ربكم أن يخفف عنكم، فإنا لا نشفع لكم، ولا نسأل ربنا التخفيف لكم ﴿وَ﴾ علىٰ كل حال: ﴿مَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ وضياع؛ حيث لا يُسمع منهم، ولا يستجاب لهم.

ويبيِّن الله عز وجل أن هذا العذاب للكافرين، في الدنيا، وفي القبر، وفي يوم القيامة إنما هو نصرة للمؤمنين، حيث يقول سبحانه:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

يعني ﴿إِنَّا﴾ بعزتنا، وقدرتنا ﴿لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بإعلاء كلمتهم، ورفعة شأنهم، وإهلاك عدوهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كما نصرنا موسىٰ ومؤمن آل فرعون، وأغرقنا فرعون ﴿وَ﴾ كذلك ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ في يوم القيامة، وهم الأنبياء والحفظة؛ فيشهد الأنبياء علىٰ الكفار بالتكذيب، ويشهد الحفظة علىٰ بني آدم بما عملوا، ويجازَىٰ المؤمنون خيرًا بما قدموا.

ولمَّا يبيِّن ربنا سبحانه وتعالىٰ أنه ينصر الأنبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة: ذكر نوعًا من أنواع النصرة الإلٰهية لهم في الدنيا، فقال تبارك وتعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ عليه السلام ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ وهو ما جاء به، من الدين، والتوراة، والشرائع، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿أَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ المؤمنين به ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة، الذي جعلناه ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الذين اتبعوه، وآمنوا به، وجعلناهم وُرّاثاً لدين الله ودعوته، وفي هذا: نصر لهم واضح.

وبعد أن بيّن المولىٰ عز وجل أنه سبحانه ينصر رسله والمؤمنين، في الدنيا والآخرة !! وبعد أن ضرب المثال علىٰ ذلك بموسى عليه السلام !!

خاطب محمدًا عليه السلام قائلًا:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾

أمره ربه سبحانه بثلاثة أمور:

الأول: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ علىٰ أذى قومك، كما صبر موسىٰ علىٰ الأذى ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بنصر أوليائه، ـ وأنت منهم ـ علىٰ الأعداء ﴿حَقّٞ﴾ لا يتخلف.

الثاني: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ رفعًا لدرجاتك، وليصير فعْلُك هذا سُنَّة للمؤمنين.

الثالث: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ نزِّهه سبحانه عما لا يليق به، واحمده علىٰ نِعَمِه ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ أي: في كل وقت وحين.

والمولىٰ عز وجل قد بيّن قبل ذلك أن الكافرين ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ [غافر: ٣٥]!!

وأنَّه كبر جدالهم هذا مقتًا عند الله، وعند الذين آمنوا!!

وهنا يبيِّن سبحانه السبب الذي يدفعهم إلىٰ هذا الجدال، فيقول جل وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾

يعني ما يدفعهم إلىٰ ذلك سوىٰ الكبر الذي في صدورهم، والحسد الذي ينهش قلوبهم، والرغبة في العلو عليك، وكل هذا التمني الفاسد: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ ولا واصلين إليه، لذلك ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ من كيدهم، وكيد كُل من يجادل، والتجئ إليه سبحانه، وتوكل عليه وحده، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقول ويقولون ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ بما تفعل ويفعلون، لذلك فهو ناصرك عليهم، وعاصمك من شرورهم.

ويضرب الله مثالًا علىٰ جدالهم في آيات الله بغير سلطان !! فيقول جل جلاله:

﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾

وتوضيح ذلك أنهم ينكرون بعث الله للعباد بعد موتهم، مع أنهم يعترفون أن الله عز وجل، هو خالق السموات والأرض!! كما يعترفون أنَّ خَلْق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾!! لذلك كان بالضرورة: خالق الأكبر قادر علىٰ خلق الأصغر، وبالتالي: فهو سبحانه قادر علىٰ إعادة وبعث مَن خلقه أولًا، بعد موته، وهو الإنسان.

ومع وضوح ذلك: فأكثر الناس لا يعلمون؛ فينكرون، فيكفرون.

ولمَّا بيّن تعالىٰ: كيف يكون الجدال في آيات الله المقرون بالكبر والحسد، وكذلك: كيف يكون الجدال بالحجة والبرهان؟ نبَّه تعالىٰ علىٰ الفرق بين الجدالين.. بذكر هذا المثال:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

أي: لا يستوي هذا وذاك، كما لا يستوي الأعمىٰ الذي لا يبصر شيئًا، مع البصير الذي يرىٰ ما ينتهي إليه بصره.

وكما لا يستوي ـ كذلك ـ المؤمنون الأبرار مع الكفرة الفجار.

حقًّا، ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أيها الناس، وتتعظون!!

وَلمَّا تَقَدَّر بالدليل إمكانية وجود يوم القيامة: عقَّب عليه ربنا سبحانه بأنْ أخبر عن وقوعها، ودخولها في حيِّز الوجود، فقال تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يعني ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ وهي يوم القيامة والبعث ﴿لَءَاتِيَةٌ﴾ وواقعة ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا شك ﴿فِيهَا﴾ ولا في وقوعها، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الذين ينكرون البعث ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بها.

وهكذا فإن القيامة: حق وصدق، ولا ينتفع الإنسان فيها إلَّا بالطاعة!!

ولمَّا كان أشرف الطاعات، التي ينبغي أن يشتغل بها الإنسان، هي: الدعاء، فقد أرشد المولى عباده:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

أي: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ فضلًا منه ورحمة ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ واسألوني ما شئتم ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وأحققه كما تطلبون بقدرتي؛ ودعاؤكم لي عبادة، ودعاؤكم لي

توحيد، لذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ ودعائي، وتوحيدي: كافرون ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ يُعذَّبون فيها ﴿دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين، محتقرين.

هذا ولمَّا أمر الله عباده بالاشتغال بالدعاء، ووعدهم بالإجابة: بيَّن بالدليل وجوده، وقدرته، وتفرُّده سبحانه، وذلك **بدلائل عشر**: فقال تعالىٰ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

في هذه الآيات: دليلان من دلائل الأفاق، وهما: خلق الليل والنهار.

أولاً: هو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ وتستريحون من عناء أعمالكم.

ثانيًا: ﴿وَ﴾ جعل ﴿ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئًا؛ لتتمكنوا فيه من أداء أعمالكم وأغراضكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ بهذا، ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كلهم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الكفار ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله علىٰ هذه النعمة، ولا يعترفون بهذا الدليل.

علىٰ أية حال: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الخالق هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ في الوجود ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الذي يستطيع أن يقوم بذلك، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ ومن أي جهة تُصرَفون عن الإيمان به، وعبادته أيها الكافرون؟

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما ضل هؤلاء عن الحق، وصُرِفوا عن عبادة الله، ﴿يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟﴾ من قبلهم أيضًا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة علىٰ وجوده، ووحدانيته، وقدرته فهم

﴿يَجْحَدُونَ﴾ بها، وينكرون لها.

أيضا هو: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

وفي هذه الآيات كذلك: خمسة أدلة، علىٰ وجود الله وقدرته، دليلان منها: من دلائل الآفاق، وهما الأرض والسماء، وثلاثة منها: من دلائل الأنفس، وهي تصوير الخلق، وتحسين صورتهم، والجود عليهم بالطيبات من الرزق.

والمعنىٰ: هو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ تستقرون عليها، وتتصرفون فيها، وتتمتعون بها، دون أن تميد بكم، أو تضطرب وتهتز، في سكونها، أو في حركتها المنتظمة، وهذا هو **الدليل الثالث** ـ من الدلائل العشر.

رابعًا: ﴿وَ﴾ جعل ﴿ٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ مُحكمًا، كأنها القبة، من غير عمد ولا حوامل، وزيَّنها بالكواكب.

خامسًا: ﴿وَ﴾ كذلك ﴿صَوَّرَكُمْ﴾ علىٰ هذا النحو البديع المتفرد.

سادسًا: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، وذلك: من أَجَلِّ نِعَم الله علىٰ عباده، ومن أقوى الأدلة علىٰ وجوده سبحانه.

سابعًا: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ في المآكل والمشارب، وبذلك فهو خالق: الدار، والسكان، والأرزاق. فله الحمد في الأولىٰ والآخرة.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الواحد الأحد، القوي القادر، خالق كل شيء ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، و﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْحَىُّ﴾ وليس كما تعبدون من الأموات، كالأصنام ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ المتفرد بالألوهية، لذلك

﴿فَٱدْعُوهُ﴾ اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي الطاعة، مع التوحيد الخالص، قائلين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لتجمعوا بين العبادة والشكر.

ولمَّا عرض الله هذه الأدلة السبعة علىٰ وجوده وقدرته: أمر النبي ﷺ أن يرد علىٰ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان، وينكرون البعث، يقول الله عز وجل:

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّى نُهِيتُ﴾ من ربي ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كالأصنام وغيرها، وذلك ﴿لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ وهي دلائل التوحيد والقدرة ﴿مِّن رَّبِّى﴾ والتي تعرفونها، ولكن تكفرون، ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ أمري، وأنقاد طوعًا لله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فانتهوا عما تعبدون من دون الله، وأسلموا أمركم له سبحانه، وآمنوا به إن كنتم تعقلون!!

ثم يكمل ربنا تبارك وتعالىٰ الأدلة علىٰ وجوده وقدرته، فيقول جل وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

وفي هذه الآيات ثلاثة أدلة ـ وهي باقي العشرة ـ من أدلة الأنفس وهي: الخلق من تراب، وتطورات الجنين، وكذلك الإخراج من البطون، ثم الإحياء والإماتة.

والمعنىٰ: ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهذا هو **الدليل الثامن** الذي يدل علىٰ وجود الله، والذي لا يستطيعه سواه، سبحانه وتعالىٰ ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ لا تعرفون شيئًا ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ وهو سن الأربعين ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ بعد بلوغ الرشد، وهذا هو **الدليل التاسع** الذي يدل علىٰ وجود الله، والذي لا يستطيعه سواه، سبحانه وتعالىٰ، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ يموت ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل بلوغ الرشد، أو بلوغ

الشيخوخة، ومنكم مَن يُتوفى عند الأشد، ومنكم مَن يُتوفى عند الشيخوخة، ﴿وَ﴾ ذلك: ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ﴾ حتى تصلوا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في هذا الدليل من الوضوح؛ فتعتبروا به، وتؤمنوا..!!

وهذا هو **الدليل العاشر** الذي يدل علىٰ وجود الله، الذي لا يستطيعه أحد سواه، سبحانه وتعالىٰ.

حقًّا: ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ المتفرِّد بذلك ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ومَن كان هذا شأنه: يجب الخضوع له، والتسليم له، والإيمان به، وإفراده بالعبادة..!!

لقد سبق الحديث عن ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٣٥، ٥٦] بغير سلطان أتاهم.

في المرة الأولىٰ يبيِّن ربنا: أن الله والمؤمنين يمقتونهم.

وفي المرة الثانية يبيِّن سبحانه: أن الذي يدفعهم لذلك هو الكبر والحقد.

وفي المرة الثالثة.. وهي التي سَتَرِدُ إليها الآن: يبيِّن المولىٰ أنهم يكذبون كل الرسل، وكل الرسالات.. فيقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يعني ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وتتعجب ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة علىٰ توحيده ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يُصْرَفُونَ﴾ عن الإيمان؟

لا تتعجب من حالهم، إنهم هم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو القرآن ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من الهدى والرشاد، هؤلاء لن نتركهم من عقابنا لهم علىٰ كفرهم، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ما يحل بهم من عذاب؛ عقوبة لهم علىٰ تكذيبهم!!

ثم يبيِّن ربنا عز وجل: هذا العذاب الذي ينزل بهم، فيقول جل وعلا:

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ

فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

نعم، سوف يعلمون نتيجة تكذيبهم ﴿إِذِ﴾ وقت أن تكون ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ وهي: القيود ﴿فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾، وكذلك ﴿ٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ بها ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ وهي جنهم، ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي: يوقدون، ويصيرون حطبًا لها.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ من خزنة جهنم، علىٰ جهة الاستهزاء بهم، والتبكيت لهم ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ مع الله، وما كنتم تعبدونه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ ﴿قَالُوا۟﴾ في الجواب علىٰ هذا السؤال: ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ غابوا عن عيوننا فلا نراهم، وذهبوا فلا نفع منهم، ثم ينتبهون!! فيكذبون علىٰ عادتهم في الدنيا، فيقولون: لا ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟﴾ ونعبد ﴿مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ !! وهكذا: ضلوا في الدنيا والآخرة، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عن طريق الهداية؛ لاختيارهم الضلال !!

ثم يقال لهم أيضًا: ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مع كفركم بزينتها، والانشغال بها، ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ الذي بيَّنه الله تعالىٰ، وحدَّد معالمه ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ فيها أيضًا بظلم أهلها، والإفساد فيها.

ثمّ يقال لهم ثالثًا: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ للعذاب ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ فلا خروج منها، ولا موت لكم فيها، أقيموا فيها فهي محل إقامتكم ومثواكم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ مثواكم!!

وبعد هذا البيان الإلٰهي لكل ما يتعلق بالذين ﴿يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ [غافر: ٣٥، ٥٦] وهم الذين آذوا النبي ﷺ وعاندوه !!!

يقول له ربه عز وجل:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾

يعني ﴿فَٱصْبِرْ﴾ في دعوتك لهم، وعلىٰ إيذائهم لك ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بعذاب الكافرين المعاندين ﴿حَقٌّ﴾ وسوف ينزل بهم لا محالة، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في حياتك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ به من هذا العذاب!! ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نعذبهم في الدنيا، ﴿فَإِلَيْنَا﴾ في هذه الحال ﴿يُرْجَعُونَ﴾ ويعذبون.

لهذا فاصبر، وتأسَّ بمن قبلك من الأنبياء:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ إلىٰ أقوامهم، فدعوهم إلىٰ الإيمان، فكذبوهم، وآذوهم؛ فصبروا، ﴿مِنْهُم﴾ أي: من هؤلاء الرسل ﴿مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أي: ذكرنا لك أخبارهم وقصصهم في القرآن، وهم خمسة وعشرون رسولًا، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ فيه من أخبارهم شيء، وهم كثير، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ منهم ﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ معجزة يراها قومه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وأنت كذلك في هذا الأمر،﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بعذاب هؤلاء الكفار ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ بين الرسل ومكذِّبيهم، ووقع العذاب بهؤلاء المكذبين، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ الكافرون، المعاندون الذين ﴿يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ [غافر: ٣٥، ٥٦].

ثم يُذكِّر ربنا تبارك وتعالىٰ هؤلاء المكذِّبين ببعض نعمه عليهم، فيقول جل وعلا:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

يعني هو ﴿ٱللَّهُ﴾ صاحب النعم الكثيرة، وهو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾ بعضها ﴿وَ﴾ البعض الآخر ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، و ﴿لَكُمْ﴾ كذلك

﴿فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أخرىٰ، ﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾ وتحققوا ﴿عَلَيْهَا حَاجَةً﴾ أيَّة حاجة ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ تتمنونها أو تَسْتَجِدّ لكم، ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ أي: السفن في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ من مكان إلىٰ مكان.

﴿وَ﴾ فوق هذا كله ﴿يُرِيكُمْ﴾ سبحانه ﴿آيَاتِهِ﴾ الكثيرة، في الآفاق والأنفس، الدالة علىٰ وحدانيته، وقدرته، ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ﴾ من هذه ﴿تُنْكِرُونَ﴾ ولا تستدلون بها علىٰ هذا الإلٰه الواحد القادر الحكيم؟ فآمنوا خيرًا لكم.

ثم يذكِّرهم بمن كان قبلهم، وفعل مثل فعلهم، إذْ يقول المولىٰ عز وجل:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

يعني ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ خلال أسفارهم ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ ويعرفوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ نهاية ﴿الَّذِينَ﴾ كفروا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ والذين ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ كانوا أكثر منهم عددًا ﴿وَأَشَدَّ﴾ منهم ﴿قُوَّةً﴾ وأبقىٰ ﴿وَآثَارًا﴾ وبنايات ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؟ ﴿فَـ﴾ لمَّا كذب هؤلاء وكفروا ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ عندما نزل بهم العذاب ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ويملكون من القوة والغنىٰ والآثار!!

ذلك أنه لمَّا ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الظاهرات، والآيات الدالة علىٰ وحدانية الله: اغتروا، و ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأمور الدنيا، وتكبَّروا علىٰ الإيمان بالله، واستهزؤوا بالعذاب الذي يوعدون به، وهنا نزل بهم العذاب ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

والعجيب !!

أنهم لمَّا ﴿رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ عذابنا، وهو ينزل بهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ في الدنيا.

ولكن فات الأوان، ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ في هذا الوقت ﴿لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ ينزل بهم!! إنما كان ينفعهم إيمانهم هذا لو كان في الدنيا؛ حيث هم الآن في دار الجزاء، فـ: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ هذه، هي ﴿ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ﴾ سبقت ﴿فِى عِبَادِهِۦ﴾ وهي أنه لا إيمان بعد نزول العذاب، ولا توبة بعد غرغرة الموت، ﴿و﴾ بذلك ﴿خَسِرَ هُنَالِكَ﴾ في هذه اللحظة، كما هم خاسرون دائمًا ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فهلَّا آمنتم أيها المعاندون المكذبون الآن، حتىٰ لا يكون موقفكم كموقفهم، ومصيركم كمصيرهم؟.

* * *

openkandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة فصلت

وهي سورة مكية، تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾

﴿حمٓ﴾ هذا ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فآمنوا به، والتزموا بتشريعاته.

وهو ﴿كِتَٰبٌ﴾ كريم ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ ووُضّحت غاية التوضيح: لهؤلاء الذين نزل عليهم، والذين يأتون من بعدهم، لا لبس فيه ولا غموض، وكان ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بلسان عربي فصيح، نزل بأفضل اللغات، وأقواها أداءً وأعظمها بيانًا، وأكثرها تلاؤمًا مع لسان البشر، وذلك ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ما فيه، فيؤمنون به، ويعملون بأحكامه، وينتفعون بكنوزه.

وكان كذلك ﴿بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالخير والنعيم ﴿نَذِيرًا﴾ للمعارضين المعاندين بالعذاب الأليم، هذا عن القرآن، فماذا عن موقف الناس منه؟

يقول تعالىٰ: فآمن به قليل منهم، وأَعْرَضَ ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ عنه، ولم يؤمنوا به، ثم يبيِّن ربنا: موقف هذه الكثرة التي لم تؤمن، وذلك في النقاط التالية:

أولًا: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ له بالمرة، وإن سمعوا: فهو سماع بلا قبول!!

ثانيًا: ﴿وَقَالُوا﴾ للنبي ﷺ، حينما قرأه عليهم ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أغطية ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله، وتوحيده، وعبادته.

ثالثًا: وقالوا له كذلك: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صمم، فلا نسمع ما جئتنا به، ودعوتنا له.

رابعًا: قالوا له ﷺ: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول، ولا نستجيب لشيء مما تدعونا إليه.

خامسًا: ﴿فَاعْمَلْ﴾ على طريقتك ولدعوتك كما تحب ﴿إِنَّنَا﴾ أيضًا ﴿عَامِلُونَ﴾ على طريقتنا، ولما نحن فيه، ولن نتبعك.

وهكذا: أغلقوا كل منافذ الإجابة عندهم؛ عنادًا منهم، واستكبارًا.

لذلك يقول ربنا تبارك وتعالى للنبي ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم:

أولًا: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ ولست من جنس مخالف لجنسكم؛ حتى تقفوا مني هذا الموقف، كذلك ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فهو وحي، وليس من عندي؛ حتى تقفوا من دعوتي لكم إلى الإيمان هذا الموقف، لذلك: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: إلى هذا الإله الواحد، بالإيمان والطاعة. ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما أنتم فيه من الكفر، وسوء العمل: يغفر لكم.

ثانيًا: بيَّن لهم جزاء مَن لا يستجيب، ومَن يستجيب: ﴿وَ﴾ قل لهم ﴿وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله، ﴿الَّذِينَ لَا﴾ يؤمنون به، و ﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ كذلك ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي:

كفروا بالبعث والنشور، وكذَّبوا بالحساب والجزاء.
وقل أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لا منقوص ولا مقطوع عند ربهم، بل هو دائم مستمر بدوام الجنة.

وأيضًا: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ بمن هذه قدرته، وهذه حكمته؟ وهو ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ سبحانه ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ فقط؛ تعليمًا للتأنِّي، ولو أراد أن يخلقها في لحظة؛ لفعل ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ وشركاء تعبدونهم من دون الله ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي لا يستحق الربوبية والعبادة سواه، هو سبحانه: الذي خلق الأرض في يومين، وأخبر أنه أتىٰ فيها بثلاثة أنواع من الفعل البديع، والصنع العجيب:

الأول: ﴿جَعَلَ فِيهَا﴾ جبالًا ﴿رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ لئلا تميد بالبشر.
الثاني: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ حيث خلق فيها كل ما يحتاج إليه الإنسان.
الثالث: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ من الأرزاق، والمياه والمعادن.. إلخ، وبذلك: صار خلق الأرض وهذه الأنواع ﴿فِى﴾ تمام ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الله، التي لا يدري سواه عز وجل مقدارها.
﴿سَوَآءً﴾ لا تزيد ولا تنقص ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ الذين يريدون المعرفة.
﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾ ربنا سبحانه ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ معًا ﴿ٱئْتِيَا﴾ استجيبا لأمري ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ إظهارًا لكمال القدرة، ﴿قَالَتَآ﴾ أي: السماء والأرض لله تعالىٰ: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ أي: صيَّرهنَّ، وجعلهنَّ ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾، وبذلك: صارت أيام خلق الكون ستة أيام.

وأخبر تعالىٰ: أنه أتى فيها بأمرين من الفعل البديع والصنع العجيب:

الأول: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: خلق فيها خلقًا من الملائكة، وأمرهم بطاعته وعبادته سبحانه.

الثاني: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي الكواكب المنيرة لأهل الأرض ﴿وَ﴾ حفظناها ﴿حِفْظًا﴾ من الشياطين بالشُّهُب، ﴿ذَٰلِكَ﴾ كله: من الخلق العظيم، والتدبير الحكيم!! هو ﴿تَقْدِيرُ﴾ وفعل ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ كامل القدرة، الذي لا يغلبه أحد، وعلم ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ كامل العلم، المحيط بكل شيء.

وليس هذا بغريب، فإن تلك الأعمال، لا تكون إلَّا: بقدرة كاملة، وعلم محيط.

هذه آياتنا: نعرضها عليهم!! وهذه دلائل قدرتنا: نوضحها لهم!!

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

أي: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الاستجابة لك، ولم يؤمنوا، ﴿فَقُلْ﴾ لهم: لقد ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ خوَّفتكم من نتيجة كفركم وتكذيبكم لي وعنادكم، أن تنزل بكم صَاعِقَةٌ تهلككم ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ التي أهلكتهم، ومَن علىٰ شاكلتهم، وذلك ﴿إِذْ﴾ أي: حينما ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من كل جانب، واستعملوا معهم كل حيلة؛ ليحملوهم علىٰ الإيمان، وقالوا لهم: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وحده، فما كان من هؤلاء المعاندين إلَّا أن ﴿قَالُوا۟﴾ لرسلهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ إرسال رسل إلينا ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ من عنده يدعوننا إلىٰ ما يريد منا، وليس أنتم، لذلك: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ حسب دعواكم ﴿كَٰفِرُونَ﴾ بكم، وبما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده.

أتدرون ما حدث لهؤلاء المكذبين، من أمثالكم؟

يقول القادر العزيز، بالنسبة لعاد، قوم هود عليه السلام:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

أي: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ وموقفهم من رسولهم؛ ﴿فَـ﴾ هو:

أولًا: أنهم ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وبغوا، وعاثوا فيها فسادًا، وأكثروا فيها ظلمًا للعباد، وتكبروا علىٰ الخضوع لله رب العالمين.

ثانيًا: ﴿وَقَالُوا۟﴾ لمَّا خوَّفهم هود عليه السلام من غضب الله وعذابه لكفرهم ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ حتىٰ يعذبنا؟ ﴿أ﴾ عموا ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ ويعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأقدر عليهم، وعلى إهلاكهم؟

ثالثًا: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ معجزاتنا مع رسلنا، الدالة علىٰ وحدانيتنا وقدرتنا ﴿يَجْحَدُونَ﴾ يعرفون أنها حق، ولكنهم لتكبُّرهم وعنادهم ينكرونها، ولا يؤمنون!! ونتيجة لموقفهم هذا أَرْسَلْنَا ﴿عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردة، شديدة الصوت، شديدة السرعة، بلا مطر ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ مشؤومات عليهم. وقد سخَّرها الله: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

يقول تعالىٰ: وكان ذلك ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ والذل ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لهم ﴿أَخْزَىٰ﴾ وأكثر إذلالًا ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ حينها من أحد، ولا من آلهتهم التي لا تملك شيئًا، والتي كانوا يعبدونها.

ثم يقول القادر العزيز بالنسبة لثمود، قوم صالح عليه السلام:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

أي: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وموقفهم من رسولهم، ﴿فَـ﴾ هو: أننا ﴿هَدَيْنَٰهُمْ﴾ أرشدناهم إلىٰ طريق الهداية، وعرَّفناهم طريق الخير وطريق الشر!! ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾ وهو الكفر ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ وهو الإيمان، فماذا كانت نتيجة هذا الموقف؟

يقول العزيز الغالب: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾، وهي: الصيحة والرجفة، التي فيها الذل، والهوان، **وذلك**: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ويفترون من تكذيب، وعناد، وآثام.

وهكذا: أهلكنا المعاندين، المكذبين، من قوم عاد وقوم ثمود:

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

يعني ﴿وَنَجَّيْنَا﴾ من هذا العذاب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله من الأمَّتين ﴿وَ﴾ وهم الذين ﴿كَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ ويبتعدون عن الأعمال التي يأتي بها، ويكفر بسببها، قوم عاد وقوم ثمود.

هذا أيها المكذبون: ما يحدث في الدنيا؛ فاحذروه، وآمنوا.

ثم ينذرهم ويخوِّفهم ربنا بما يحدث في الآخرة كذلك، فيقول عز من قائل:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

يعني ﴿وَ﴾ اذكر للكفار المعاندين لك بعض أحوالهم في يوم القيامة ﴿يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ من الأولين والآخرين ﴿إِلَى ٱلنَّارِ ۖ﴾ ليعذَّبوا فيها..!!

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ تجمعهم الزبانية وتسوقهم، وتحبسهم إلىٰ أن يتكامل عددهم جميعًا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ وعاينوها، وصاروا بحضرتها، وسئلوا عن أعمالهم السيئة، وأنكروا أنهم فعلوها!! ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من هذه الأعمال التي أنكروها.

﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ﴾ هذه، التي احتوت سمعهم وأبصارهم؛ استنكارًا لشهادتهم هذه: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ وأنتم منا، وكنا تقترف المعاصي للذتكم، وكنتم تساعدوننا علىٰ ارتكابها؟ وكيف نطقتم وأنتم لا تتكلمون؟ وهنا ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: جلودهم ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ القادر ﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾إذا أراد نطقه، وكيف تتعجبون من إنطاقه لنا؟ ﴿وَهُوَ﴾ الذي ﴿خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهي أصعب.!! ﴿وَ﴾ كان ينبغي عليكم أن تعرفوا أنكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيحاسبكم علىٰ أعمالكم، ويجازيكم عليها.

ثم يبيِّن ربنا عز وجل: سبب غفلتهم وجهلهم بأن أعضاءهم سوف تشهد عليهم، فيقول لهم:

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ عند ارتكابكم المعاصي؛ خوفًا من ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾ بما فعلتم ﴿سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ لأنكم لا تؤمنون بالبعث، ﴿وَلَٰكِن﴾ لكفركم بوحدانية الله، وقدرته، وإحاطة علمه بكل شيء: ﴿ظَنَنتُمْ﴾ عند عدم استتاركم من هذه الأعضاء، أثناء ارتكاب الفواحش ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ﴾ الخاطئ القبيح ﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي: أهلككم، ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ المعذبين في نار جهنم.

ءيكون حالهم إلىٰ أسوإ الأحوال:

﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يعني: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟﴾ علىٰ العذاب: لا ينفعهم الصبر في التخفيف منه، أو

التعوُّد عليه، أو الخروج منه ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ وإقامة أبدية، ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ ويطلبوا الصفح والرضا،والعودة إلىٰ الدنيا؛ ليعملوا صالحًا: ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ الذين يُجاب طلبهم، ويتحقق رجاؤهم.

وبعد ذكر هذا التهديد والوعيد بالعذاب لهم في الدنيا والآخرة، يوضح المولىٰ: السبب الذي أوقعهم في هذا الكفر، وساعدهم علىٰ هذا العناد، فيقول الحق سبحانه:

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَقَيَّضْنَا﴾ أي: هيَّئنا ﴿لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ يلازمونهم، ويقترنون معهم، في تصرفاتهم وسلوكياتهم، من الإنس والجن، ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا، واتباع الشهوات، وزيَّنوا لهم كذلك ﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر العاقبة، وأنه لا بعث ولا حساب ولا عذاب، ﴿وَ﴾ بذلك: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بالعذاب ﴿فِىٓ﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ﴾ سبقت ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ أي: من قبل كفار هذه الأمة ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، حقًّا ﴿إِنَّهُمْ﴾ كل الكفار السابقين واللاحقين، بسبب ذلك ﴿كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ ولأن كفار هذه الأمة يعلمون علم اليقين، أن القرآن كامل في معانيه، ومبانيه، وأحكامه، وتشريعاته، وأن كل مَن سمعه بتدبر ودون عناد آمن به: فقد قالوا لبعضهم البعض ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وتشاغلوا عنه ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ لئلا يسمعه غيركم؛ فيتأثر به، ويؤمن بما جاء فيه، وبما يدعو إليه.

ولهذا هددهم الله قائلًا:

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ووقفوا من القرآن هذا الموقف وظلُّوا علىٰ كفرهم حتىٰ ماتوا: ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وهذا: ذوق للعذاب، فما بالهم العذاب نفسه؟ إنه أشد وأنكىٰ!! ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ كذلك ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: ولنجازينهم بشر أعمالهم، وسيئ أفعالهم، أسوأ وأقبح الجزاء.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يعني ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الأسوأ: هو ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ وهم الذين كفروا، وطغوا في الأرض وبغوا، وأكثروا فيها الفساد،ثم يفسر ربنا هذا الجزاء ويوضحه فيقول: هو ﴿ٱلنَّارُ﴾ وما أسوأها من جزاء، وليس هذا فقط، بل ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: الإقامة الأبدية، فلا خروج منها، ولا موت فيها ﴿جَزَآءً﴾ لهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الدالة علىٰ التوحيد والقدرة، والبعث والحساب في القرآن الكريم ﴿يَجْحَدُونَ﴾ يعرفون صحتها، وينكرون الإيمان بها، والإذعان لها.

وعند وقوع هذا الجزاء: يكون هذا التصرف العجيب:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إذا دخلوا النار ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا﴾ الآن ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ عن الهدى، وأبعدانا عن الإيمان، وأوقعانا في الكفر ﴿مِنَ﴾ العاصين شياطين ﴿ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ حتىٰ ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ انتقامًا منهما، و ﴿لِيَكُونَا﴾ معنا ﴿مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في النار وعذابها، كما جعلانا معها من الأسفلين؛ بالكفر في الدنيا.

وهذا كلام لا يفيد، وأمنيات لا تتحقق.

وبعد أن عرضنا مواقف الكفار وعذابهم!! يأتي إلى عرض ما للمؤمنين والمؤمنات من الرضا والبشريات، جعلنا الله وإياكم منهم، إنه تعالىٰ ولي ذلك والقادر عليه.

يقول الربُّ الكريم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ علىٰ التوحيد، وطاعة الله، والتوبة

إليه من الذنوب والمعاصي، وأخلصوا العمل له سبحانه، طيلة حياتهم حتىٰ الموت: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في هذه الأوقات:

الأول: في حياتهم عندما يُعرض لهم ما يكدِّر صفوهم، ويضعف صفوفهم.

الثاني: عند الموت، ومعالجة سكراته.

الثالث: في القبر، وظلمته، ووحشته.

الرابع: عند البعث يوم القيامة.

ولكن: بم تتنزل عليهم؟ تتنزل عليهم: بما يدفع عنهم الخوف والحزن، وتبشِّرهم قائلة لهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها من ربكم، وكأنَّ المؤمنين يقولون لهم: من أنتم؟

فيقولون لهم: ﴿نَحْنُ﴾ الملائكة ﴿أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ وأحباؤكم من الذين كنا ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ نحفظكم بأمر الله ﴿وَ﴾ نحن ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كذلك نكون معكم: نؤنس الوحشة منكم في القبور وعند النفخة في الصُور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلىٰ جنات النعيم، ﴿وَلَكُمْ﴾ فضلًا من الله ﴿فِيهَا﴾ أي في هذه الجنات: جميع ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ له، وَتقرَّ أعينكم به، ﴿وَلَكُمْ﴾ فيها كذلك: كل ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ أي مهما تمنيتم وطلبتم: وجدتم.

﴿نُزُلًا﴾ ضيافة وفضلًا ﴿مِّنْ﴾ رب ﴿غَفُورٍ﴾ لذنوبكم، ﴿رَّحِيمٍ﴾ بكم.

ثم يقول ربنا لحبيبه ﷺ: إذا كان الكفار قد أعرضوا عن الإيمان ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]!!

كما قالوا لبعضهم البعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]!!

فلا تتوقف أنت عن دعوتهم إلىٰ الإيمان بالله؛ فإنه أحسن شيء عند الله:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ أي: لا أحد أحسن قولًا وفعلًا مِنْ هذا الذي:

أولًا: ﴿دَعَآ﴾ عباد الله ﴿إِلَى﴾ توحيد ﴿ٱللَّهِ﴾ وعبادته.

ثانيًا: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يرضي الله، ويسعد العباد، ويصلح البلاد.

ثالثًا: ﴿وَقَالَ﴾ متفاخرًا، فرحًا، متباهيًا: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وإذا كان هذا الحُسْن في العلاقة بين العبد وربه، فإن الله عز وجل يبيِّن الحُسْن في العلاقة بين العبد وأخيه الإنسان، إذ يقول جل وعلا:

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

نعم: ﴿وَلَا﴾ يمكن أن ﴿تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ﴾ مع بعضهما البعض، حيث إن الحسنة جزاؤها حسن، والسيئة جزاؤها سيء.

لذلك: ﴿ٱدْفَعْ﴾ السيئة ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ كالغضب بالصبر، والجهل بالحِلْم، والإساءة بالعفو، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ إذا فعلت معه ذلك: ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ لك ﴿وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ وهو الصافي في مودته.

وإذا كان هذا في أمر الدعوة: فهو في كل الأمور مطلوب.

وممارسة ذلك: أمر صعب. لذلك يقول ربنا عز وجل:

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: وما يقبل هذه الوصية، ويعمل بها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ لأنها تَشقُّ على النفوس، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ كذلك ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: فإذا فعل المؤمن ذلك: عصمه الله من الشيطان، وخضع له عدوه من بني الإنسان، وأصبح كأنه ولي حميم.

وإذا كان هذا علاج عداوة الإنسان!! فماذا عن علاج عداوة الشيطان؟ يقول الله تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

عداوة الشيطان ﴿نَزْغٌ﴾: أي وسوسة بالمعصية، وتزيين لارتكابها، ﴿وَ﴾ لذلك ﴿إِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ أيها المؤمن ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ بالمعصية: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شره، ووسوسته، ولا تطعه، ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بصدق رغبتك في الطاعة، والبعد عن المعصية التي يزيِّنها لك الشيطان، القادر على صرف شره عنك.

ولمَّا بيّن ربنا تبارك وتعالى أن أحسن الأقوال والأفعال، هي: الدعوة إلى الله!! بيّن أنها تكون: بذكر آياته، الدالة على وجوده، وتوحيده، وقدرته، وعظمته، فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

يعني قل لهم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الفلكية الدالة على وحدانيته، وقدرته هذه الأربعة: **وهي:** ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾.

فآمنوا بالله، ووحِّدوه، واعبدوه، واخضعوا له واسجدوا، و ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فهما مخلوقان من خَلْقِ الله ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ وحده ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ أي: خلق هذه الأشياء وأبدعها.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ حسب زعمكم: فهذا هو الطريق الصحيح لعبادته. ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الإيمان بالله والسجود له، فلا عليك، ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ من ذلك، بل يسعدون.

أيضًا، قل لهم هذه الآية الأرضية:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

أي: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة علىٰ وحدانيته، وقدرته: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ هامدة، قاحطة، لا نبات فيها!! ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا﴾ بقدرتنا ﴿عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ ارتوت، و ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت، وأخرجت جميع الألوان من الزروع والثمار، مَن الذي أحياها بعد موتها هذا؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ هو الله القادر، إنه سبحانه ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ بعد موتهم؛ للبعث والحساب، والجزاء، حقًّا: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: لا يعجزه جلَّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

ثم يهدد ربنا عز وجل مَن يجادل في هذه الآيات البيِّنات، الدالة علىٰ توحيده، سبحانه، وقدرته، ويحاول إلقاء الشبهات حولها، فيقول جل وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ وينحرفون بها عن الحق إلىٰ الباطل، ولا يؤمنون بسببها ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ﴾ فنحن أعلم بهم، وسنعذِّبهم أشد العذاب في نار جهنم، ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ بسبب ذلك ﴿خَيْرٌ أَم مَّن﴾ يؤمن بالله، ويتبع رسله، ويعمل بشرعه ﴿يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ أيهما خير؟، علىٰ أية حال، ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ﴾ من خير أو شر؛ فستجزون عليه، بما تستحقون، ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ كله ﴿بَصِيرٌ﴾ لا يخفىٰ عليه شيء منه.

ثم يهددهم أيضًا، فيقول جل جلاله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾

يعني ﴿إِنَّ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ وهو القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ من الله، مع رسول الله ﷺ: يجازون بكفرهم أشد الجزاء، ﴿وَ﴾ بخاصة: حيث ﴿إِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ منيع الجناب، لا يستطيع أحد معارضته.

ثم زاد المولىٰ وصف هذا الكتاب، فقال تعالىٰ:

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

أي: هو كتاب كامل صادق ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أيًا كان هذا الباطل ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ إذْ لم تكذِّبه الكتب المتقدمة ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ حيث لا كتاب بعده يكذِّبه كذلك، وما ذلك إلَّا لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ محمودٌ من خلقه بسبب كثرة نعمه.

يا محمد: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

يعني ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ من التكذيب، والاستهزاء ﴿إِلَّا﴾ مثل ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ تكذيبًا لهم، واستهزاءً بهم، فاصبر كما صبروا، وواصل دعوتك كما واصلوا!! ومع ذلك: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لمن ندم منهم، وتاب، وأناب إلىٰ الله، وآمن به، واتبعك، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن استمر علىٰ كفره، وعاندك، وظل علىٰ تكذيبه لك حتىٰ مات.

ولمَّا ذكر ـ سبحانه ـ عنادهم وكفرهم وتعنُّتهم مع فصاحة القرآن وبلاغته، وهو بلغتهم !! بيّن أنهم سيعاندون حتىٰ لو نزل بغير لغتهم، إذ قال عز جاهه:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

يعني: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: ولو أنزلناه ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ بغير لغتهم ﴿لَّقَالُوا۟﴾ تعنُّتًا ﴿أ﴾ قرآن ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ﴾ ﴿و﴾ مخاطب ﴿عَرَبِىٌّ﴾ ..؟

كيف يكون ذلك؟ وكيف نفهمه؟

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هُوَ﴾ أي القرآن ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ يرشدهم إلىٰ الحق والخير ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لما في الصدور، ﴿و﴾ هو: لـ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله

وبالقرآن، لأَنَّ ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ ثقل وصمم ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ ظلمة وشُبَه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكافرون، حينما يدعون إلىٰ الإيمان: كأنهم ﴿يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ حيث إنهم في آذانهم وقر، بسببه لا يسمعون سماع هداية، ولا ينتفعون حتىٰ بما يسمعون لو سمعوا!!

هذا، وإنزال القرآن عليك: ليس بدعًا! فهو سنة الله مع الرسل من قبلك:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ٤٥﴾

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة، كما آتيناك القرآن، ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ أي في التوراة، بالتصديق والتكذيب، كما ﴿ٱخۡتُلِفَ﴾ في القرآن كذلك.

لذلك: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] هذا.. ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير العذاب عن أمتك يا محمد إلىٰ يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ فيما اختلفوا فيه، وعجَّل لهم العذاب في الدنيا، بل لهم موعد يُعذَّبون فيه!! ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ مع ذلك: ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ من الموعد، ومن صدق القرآن ﴿مُرِيبٖ﴾ أي: مُوقع في الريبة والقلق.

لذلك: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾

صدق الله العظيم، وبلَّغ رسوله الأمين، ونحن علىٰ ذلك من الشاهدين الشاكرين، أي: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ فلنفسه الجزاء الطيب، والآخر عليه الجزاء السيئ، وذلك بالطبع يكون في يوم الجزاء، وهو يوم القيامة.

متى يكون ذلك اليوم؟ الجواب:

﴿۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٤٨﴾

يعني: علْم وقت قيام الساعة لا يعلمه إلَّا الله، لذلك: ينبغي علىٰ مَن سُئل عنه أن يرد ﴿إِلَيْهِ﴾ وحده سبحانه ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

وكما أن العِلْم بها ليس إلَّا عند الله، فكذلك: العلم بالحوادث المستقبلية كلها عند الله وحده، وهذان مثالان علىٰ ذلك:

الأول: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: أوعيتها التي تغطِّيها، قبل أن تنضج، إلَّا بعلمه سبحانه.

الثاني: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ كذلك.

ويعود المولىٰ عز وجل إلىٰ تهديد المشركين الذين استنكروا يوم القيامة، وبعث الخلائق للحساب، فيقول: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ ربهم، قائلًا لهم علىٰ رؤوس الأشهاد ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين كنتم تزعمونهم في الدنيا؟ ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أي: علِمْت يا ربنا من قلوبنا الآن أنا لا نشهد بالشهادة الباطلة نفسها، و ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ يشهد اليوم أن لك شريكًا.

﴿وَ﴾ أيضًا ﴿ضَلَّ عَنْهُم﴾ وذهب ولم ينفعهم ﴿مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ﴾ أي: يعبدون من قبل، ﴿وَظَنُّواْ﴾ يعني: وأيقنوا أنه ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: مهرَب من عذاب الله تبارك وتعالىٰ.

وبهذا، تغيَّر خطُّهم عما كان قبلًا، وهكذا الإنسان في جميع الأوقات: متبدل الأحوال إن أَحسَّ بخير: انتعش وانتفخ، وإن أَحسَّ بشر: انكمش وذبل.

حقًّا: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾

﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾ ولا يمل ﴿ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ وطلبه من ربه، ﴿وَإِن

﴿مَسَّهُ﴾ نزل به ﴿ٱلشَّرُّ﴾ من البلاء، أو الفقر، وخلافه: ﴿فَـ﴾ هو ﴿يَؤُوسٌ﴾ من الخير ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمة الله.

هذا اليائس القانط لو عاودته النعمة ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾، ليكون منه ثلاثة أقوال عجيبة، فاسدة:

أولها: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا﴾ الخير ﴿لِى﴾ أستحقُّه بمجهودي، أوتيته على علم عندي، ولن يزول عني، وسيبقى لي ولأولادي من بعدي.

ثانيها: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: تقوم وذلك لرغبته الشديدة في الدنيا، وما فيها، وكفَرنا بالساعة ووقوعها.

ثالثها: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ لو كان هناك بعث كما يقولون ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ كما أحسن إليَّ في هذه الحياة الدنيا.

والحقيقة: أن الأمر ليس كما يظن، فهو: لم تأته النعمة إلَّا بفضل الله، والساعة قائمة وآتية لا محالة، وسيرجع إلى ربه، وعندها ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من الذنوب والمعاصي، ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديدٍ لا يُفَتَّر عنهم.

وإذا كان ما ذكر هو أقواله الفاسدة: أمَّا أفعاله، كما يقول المولى عز وجل:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

أي: عندما يُنْعِم الله عليه يُعْرِض عن تعظيم أمر الله، وشكر نعمته، ويتكبَّر ويتعالى على خلق الله ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ ونزل به البلاء: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أقبل على الله، وصار ذو دعاء عريض، وابتهال طويل.

يا محمد: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المعاندين المكذبين، المعرضين عن القرآن، والإيمان به: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ يعني: أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وليس من عندي كما تزعمون ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾، ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحق مثلكم؟

حقيقة: إنه ليس أضل منكم في هذه الحالة؟

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾

أي: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ ونُظِّهر لهم ﴿ءَايَـٰتِنَا﴾ الدالة على وحدانيتنا ﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ الخارجية المحيطة بهم ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الداخلية ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ﴾ أي: القرآن، هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ المنزَّل من الله، وكل ما فيه، وما أخبر عنه كذلك من البعث والحشر والحساب والجنة والنار حق، ثم يوبِّخهم رب العزة على كفرهم وترددهم هذا فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ عز وجل ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وبكل شيء عالم ومحيط؟ وقد أخبر الله أن القرآن حق، وأنه من عنده!! فما لهم لا يؤمنون؟

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾

حقًّا: ﴿إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ أي شك ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ﴾ سبحانه؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، ولهذا: لا يتفكَّرون ولا يستعدُّون لهذا اللقاء، ثم هدَّدهم بما يبعث الهيبة في نفوسهم، حيث يقول: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ﴾ عز وجل ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ﴾ علمًا وقدرة، وسيجازيهم بما يستحقُّون.

* * *